أنطون تشيخوف

حياتي

حكاية رجل من الريف

رواية



ترجمة: يوسف نبيل

آفاق

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

حـــــياتي

(حكاية رجل من الريف)

أنطون تشيخوف

ترجمة: يوسف نبيل

مقدمة

تعودنا في قراءة قصص تشيخوف القصيرة على عدة سمات تميز أدبه بشدة، ربما أكثرها وضوحًا هي جرعة الصدق المتأصل فيها، وأقصد هنا تحديدًا الصدق الفني، بمعنى الدقة في وصف الشخصيات وعالمها الأثير وردود أفعالها... إلخ.

لم يكن تشيخوف يكتب أبدًا عن عالم لا يعرفه جيدًا، ولا يستعين بدراسات أو كتب أو رحلات كي يستكشف عالمًا ما لا يعرفه من الطفولة بهدف الكتابة عنه مثلما يفعل كتاب آخرون. كان تشيخوف يكتب عن عالم واحد يعرفه تمامًا، وفي أدبه لا يهتم كثيرًا بالتفاصيل الواقعية الخارجية من قبيل الثياب والملامح والوصف الجغرافي وما إلى ذلك، لكنه يستغرق في تحليل شخصياته ليلمس جوهرًا يستعصي على الفهم. إنه يقترب من تلك المناطق العميقة التي يصعب فيها على الإنسان استبصار الحقائق في نظرة كلية للأمور.

هذه السمات هي ما جعلت عالم تشيخوف صغيرًا جدًّا من حيث المساحة والتنوع، وفي الوقت ذاته غنيًّا في عمقه النفسي وأصالته بدرجة لا نجدها لدى أغلب الكُتَّاب.

صدر هذا العمل في عام 1896، أي أنه في فترة متأخرة من حياة تشيخوف القصيرة. في تلك الفترة كانت علاقته قد توطدت بليف تولستوي الذي كان له تأثير جارف على من حوله. والحقيقة أن كثيرًا من الأعمال الروسية عرضت أبطالًا تولستويين، يؤمنون بتعاليم تولستوي، فنجد ذلك في دكتور جيفاكو لباسترناك، وفي بعض قصص نيكولاي ليسكوف، وسنجد هذا في ذلك العمل أيضًا، الأمر الذي دفع البعض لوصف هذا العمل بأنه مكتوب لحساب تولستوي، ولكن هل هذا صحيح حقًّا؟

الحقيقة أن تشيخوف مهما تأثر بأفكار تولستوي في هذا العمل، فإنه قدَّم لنا عملًا شديد الأصالة، صحيح أنه عرض لنا أفكارًا عن العمل البدني وعن قيمة الحضارة، لكنه في الأساس قدم لنا عملًا تشيخوفيًّا أصيلًا، وكانت القضية الرئيسة في العمل - شأنه شأن أغلب أعمال تشيخوف - هي تقصي الصدق والحقيقة، فالبطل شاب في مقتبل العمر ينحدر من أسرة نبيلة، ثم يقرر تغيير المسار في بلدته الصغيرة، ويواجه قوى الكذب والنفاق في المجتمع من حوله. يؤدي تغيُّر نمط حياته الذي ينطوي على حالة مثالية من الصدق، إلى فضح هذه القوى من حوله. ويبدو أن الصراع بين الفرد والمجتمع ليس بالموضوع الجديد، أما الجديد في العمل وما يستحق الانتباه حقًّا، هو وصف التحولات النفسية التي تطرأ على البطل ومن حوله أثناء هذه المواجهة. إن

أبطال تشيخوف ليسوا أبطالًا أيدولوجيين ينادون بأفكار صارمة مثلما نجد في بعض أعمال تولستوي المتأخرة، وليست شخصيات استثنائية تقوم بأفعال غريبة وردود أفعال فجائية مثلما نجد في أغلب أعمال دوستويفسكي، لكنها شخصيات حية، تتطور مع كل لحظة في الرواية، ونلاحظ الدقة الشديدة؛ فيسعى العمل إلى مراقبة هذه التطورات عن كثب في الشخصيات الرئيسة، وهذا ما يميز أعمال تشيخوف عن أغلب معاصريه.

في قصص تشيخوف القصيرة كنا نلمح مبدأً متكررًا في كتابته، وهو ما يمكن أن نطلق عليه - إن جاز التعبير - «البرودة التشيخوفية»، فتشيخوف لا يدين أبطاله ولا يثني عليهم، بل يحاول الكتابة بحيادية مدهشة كي تنكشف الحقيقة جلية، بالإضافة إلى ذلك يكتب عن أسوأ المصائب وأكثر الأحداث إثارة للهلع ببرودة مقصودة، وكأنه يقول للقارئ: إن قوة الحدث ليست في حاجة إلى عوامل مثيرة، وإن الكاتب ليس في حاجة لدفع القارئ إلى التأثر بشتى الوسائل، فالدقة في عرض الحدث والكارثة دون أي طلاء خارجي كافية وحدها، وعوامل التأثير الدرامية المختلفة تشتت القارئ عن حقيقة الحدث، لذا نجده يُقلِّلُ من استخدام التشبيهات والمجازات الشعرية، ورغم ذلك نلمس شاعرية واضحة في لغته لكنها مرتبطة بمضمون اللغة وبساطتها المذهلة والموسيقى الداخلية النابعة من رقة الرصد. نلاحظ أيضًا تلك البرودة المتعمدة في وصف الأفعال الشريرة لشخصياته، فهو يرصدها بهدوء وبرود شديدين، ولا يتورط في الإدانة المباشرة بقدر ما يعرض عالم الشخصيات الداخلي الذي يبرر أفعالها.

لم يتخذ تشيخوف موقفًا سياسيًّا أيدولوجيًّا صارمًا في كتابته، لكنه اعتبر أن الصدق هو أكثر الأعمال ثورية، وهو محق في ذلك. لذلك يمكننا بسهولة أن نلمس راديكالية الطرح بالرغم من رقته. يقول إيليا إيرينبرج عن ذلك: «يوجد في أعماق تشيخوف دائمًا عداء نحو التخمة الروحية، نحو المخلوقات الطفيلية، نحو بخل ولا إنسانية ذلك العالم الذي أسماه «برجوازي» وقد كتب عن رواية سينكيفتش ما يلي: «هدف الرواية مناجاة البرجوازية في أحلامها الذهبية: كن مخلصًا لزوجتك، اذهب للصلاة معها، احصل على النقود، أحب الرياضة، وستسير أمورك على أحسن ما يرام في هذا العالم وذاك. إن البرجوازية تحب جدًّا ما يسمَّى بالنماذج الإيجابية والروايات ذات النهايات الحسنة؛ لأن مثل هذه النتاجات تهدئ أفكارها حول إمكانية جمع رأسمال ومراعاة البراءة، أي أن تكون وحشًا وسعيدًا بنفس الوقت». إنها السمات ذاتها التي نلاحظها في أعمال تولستوي العظيمة مثل آنا كارينينا. لكن في هذا العمل ربما تختلف السمات بدرجة طفيفة. هنا نشعر بتوحد تشيخوف مع البطل أكثر من أغلب شخصيات أعماله الأخرى، ولا شك أن طبيعة العمل

الذي يحتوي على مواد حقيقة من حياة تشيخوف نفسها كانت أحد أسباب ذلك الفارق.

ذكرتني افتتاحية العمل بافتتاحية «السند المزيف» لتولستوي، حيث تلعب قسوة الأب مع ابنه دورًا رئيسًا في العمل، والواقع أن هذه القسوة لها أصول حقيقية في حياة تشيخوف نفسه، ولا يمكننا أن نغفل وجه التشابه بين رقة البطل ورقة تشيخوف، فربما تكررت مشاهد الضرب والإذعان بالطريقة نفسها، لذا نجد في هذه المشاهد شحنة عاطفية شديدة، لكنها لم تخرج عن إطار الموضوعية في كتابة الرواية، لدى تشيخوف، بمعنى أن أفعال الشخصيات تتناسب تمامًا مع تصوير عالمها الداخلي.

اشتهر تشيخوف في العالم العربي بقصصه القصيرة بالأساس، لكن قراءة هذه النوفيلا تخبرنا عن حجم عبقريته في هذا الفن الدقيق: «النوفيلا». وما شجعني على ترجمة هذا العمل عن الروسية هو غيابه عن المجلدات الأربعة الشهيرة المختارة من ترجمة د. أبو بكر يوسف، والتي تعد علامة في ترجمة تشيخوف إلى العربية، بالإضافة إلى إعجابي الشديد بالعمل نفسه، لذا انخرطت في ترجمته عن الروسية مباشرة بحماسة شديدة.

أرجو أن أكون قد وُفِّقت في ترجمة العمل بصورة لائقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



-1-

قال لي المدير:

- إني لا أحتفظ بك إلا احترامًا مني لأبيك المبجل، ولولا هذا لكنت قد طيَّرتك من هنا منذ وقت طويل.

أجبته:

- سعادتكم تغمرونني بالإطراء حينما تفترضون فيَّ القدرة على الطيران.

حينها سمعته يقول:

- أبعدوا هذا السيد عني. إنه يثير أعصابي.

وفي غضون يومين طردوني من العمل. هكذا فقدت تسع وظائف في تلك الفترة التي كنت فيها بالغًا؛ الأمر الذي كان يبعث في نفس والدي حزنًا عظيمًا، وهو مهندس بلدتنا المعماري. لقد عملت في دوائر مختلفة، ولكن كافة الوظائف التسع كانت تشبه بعضها بعضًا كما تشبه قطرة مياه الأخرى. كان يتوجب عليَّ في جميعها أن أجلس وأكتب وأستمع لملاحظات غبية أو فظة، وأنتظر حتى يطردوني من العمل.

حينما جئت لأبي، وجدته يغط في النوم على مقعده بعينين مغمضتين. كان وجهه هزيلًا شاحبًا، ولاح على الجزء الحليق من ذقنه ظل أزرق، وبدا كعازف أرغن كاثوليكي كهل، ونَمَّ الوجه عن خزي وإذعان. قال لي دون أن يفتح عينيه ويجيب تحيتي:

- لو كانت زوجتي العزيزة وأمك لا تزال حية ترزق، لأصبحتَ مصدر أسى دائم لها. إني أرى العناية الإلهية في موتها المبكر.

ثم فتح عينيه وأكمل قائلًا:

- قُل لي رجاءً أيها التعس: ماذا يتوجب عليَّ أن أفعل بك؟

في الماضي حينما كنت أصغر سنًّا كان أقربائي وأصدقائي يعرفون ما يتوجب عليهم أن يفعلوا بي. نصحني البعض بالتطوع في الجيش، وآخرون بالعمل في صيدلية، ونصحني فريق ثالث بالعمل في إدارة التلغراف، أما الآن وقد بلغت الخامسة والعشرين من العمر وغزا الشيب صدغي، وتطوعت بالفعل في الجيش وعملت بالصيدليات وإدارة التلغراف، وبدا أن كافة الفرص المتاحة لي قد استُنفدت، توقفوا جميعًا عن إسداء النصح، وأصبحوا يكتفون بالتنهد وهز الرؤوس.

واصل أبي:

- ماذا تظن نفسك فاعلًا؟ يتمتع من يقاربك في العمر الآن بوضع اجتماعي ثابت، أما أنت، فانظر إلى حالك! بروليتاري متسول يعيش عالة على أبيه!

ثم تحدث كعادته عن الشباب وكيف يهلكون الآن من الإلحاد والمادية والغرور المفرط، وكيف يتوجب على الحكومة أن تحول دون عرض أي عروض مسرحية للهواة؛ تلك العروض التي تصرف الشباب عن دينهم وواجباتهم. وخلص إلى القول:

- غدًا سوف نذهب معًا لتقدم اعتذارك للمدير، وتخبره أنك ستعمل وفقًا لمتطلبات الضمير. ينبغي ألا يمر يوم واحد دون أن تتمتع بوظيفة تكفل لك وضعًا اجتماعيًّا.

قلت له بوجوم دون أن أنتظر خيرًا من هذه المحادثة:

- أرجوك أصغِ إليَّ. ما تطلق عليه: «وضع اجتماعي» هو في الحقيقة بمثابة امتياز خاص برأس المال والثقافة، أما أولئك الذين لا يتمتعون لا بالثروة ولا مستوى جيد من التعليم، فيكسبون خبزهم اليومي بالعمل البدني، وأنا لا أرى سببًا يجعلني أستثني نفسي من هذا الوضع.

قال أبي بسخط:

- عندما تبدأ حديثك عن العمل البدني يبدو حديثك أحمقَ تافهًا. افهم أيها البليد، افهم أيها الأحمق أن فيك روحًا إلهية بجانب تلك القوة الجسمانية الجافية؛ تلك الروح الإلهية هي قبس من نار مقدسة، وهي ما تميزك أروع تمييز عن الحمار وكل حيوان زاحف، وهي ما تدنيك من اللّٰه! هذه الشعلة المقدسة هي ثمرة الجهود التي بذلها أفضل البشر على مدار آلاف السنين. كان جدك الأكبر بولوزنيف جنرالًا، وقد قاتل في معركة بورودينو ([1])، وكان جدك شاعرًا وخطيبًا وزعيمًا لطبقة النبلاء، وعمك مدرسًا، وآخرهم أبوك مهندسًا معماريًّا! حافظ آل بولوزنيف إذَنْ جميعًا على تلك الشعلة المقدسة لكي تأتي وتطفئها أنت!

- على الإنسان أن يكون منصفًا. ملايين من الناس يعانون تحت وطأة العمل البدني.

- دعهم يعانون منه. لا يمكنهم فعل شيء سواه. أي امرئٍ قادر على العمل البدني حتى إن كان أحمقَ أو مجرمًا. إن هذا النوع من العمل هو السمة الرئيسة للعبودية والبربرية، أما تلك الشعلة المقدسة فلم تُمنح إلا لقليلين!

لم تكن هناك فائدة من الاستمرار في هذه المناقشة، فقد كان أبي يبجِّل نفسه إلى حد العبادة، ولم يكن هناك ما يمكن أن يقنعه سوى ما يقوله. لقد كنت أدرك جيدًا أن هذا الازدراء الذي يتحدث به عن العمل البدني ليس له علاقة في حقيقة الأمر بحديثه عن الشعلة المقدسة بقدر ذعره الخفي من أن أصبح عاملًا وأصبح حديث البلدة بأكملها، والأهم من ذلك أن كافة أترابي قد أنهوا دراستهم الجامعية منذ وقت طويل وشقوا طريقهم في الحياة، وأن ابن مدير المصرف الحكومي انتهى أمره إلى أن يصبح مدرسًا بإحدى الكليات، في حين أن ابنه الوحيد لم يصل لشيء. لم يكن من المجدي أن أواصل الحوار معه، وكان الحوار بغيضًا إلى نفسي، ورغم ذلك لم أبرح مكاني ورحت أعارضه آملًا أن يفهمني في نهاية الأمر. كانت المسألة برمتها واضحة وبسيطة، وهي تتعلق في جوهرها بالطريقة التي يجب بها أن أكسب عيشي، لكنه لم يتمكن من إدراك بساطة الأمر، فأخذ يحدثني حديثًا عاطفيًّا بعبارات ملتوية عن معركة بورودينو والشعلة المقدسة وعن عمي الشاعر المنسي الذي كتب ذات يوم قصائدَ سيئة مزيفة، ونعتني بفظاظة أحمقَ غبيًّا. كمْ تاقت نفسي أن يفهمني! بالرغم من كل شيء كنت أكنُّ حبًّا لأبي وشقيقتي، ودأبت منذ الطفولة أن أشاورهما في أمري، وهي عادة شديدة الرسوخ في نفسي حتى إني لا يمكنني أن أتخلى عنها إلا بصعوبة بالغة. سواء كنت على حق أم لا، كنت أخشى دائمًا أن أسيء إليهما، وكنت أخشى باستمرار أن يحمر عنق أبي من فرط الاضطراب وأن يصاب بالشلل إثر الانفعال الشديد. قلت له:

- المكوث في غرفة خانقة واستنساخ الأوراق والتنازع مع الآلة الكاتبة هو أمر مخجل ومسيء لإنسان في عمري. ما شأن كل ذلك بالحديث عن الشعلة المقدسة؟!

- إنه عمل عقلي على أي حال، ولكن يكفي هذا؛ فلنوقف هذا الحوار، فإني في كل الأحوال أحذرك: إن لم تعد إلى وظيفتك، وآثرت أن تخضع لأهوائك الدنيئة، فسوف نحرمك أنا وابنتي من حبنا لك، وقسمًا باللّٰه سوف أحرمك من الميراث.

قلت له برغبة مخلصة في الكشف عن دوافعي الحقيقية التي أردت الاسترشاد بها في جميع ما أفعل:

- إن مسألة الميراث برمتها لا تهمني في شيء. سوف أتخلى عنه من الآن.

ولسبب ما لم أكن أتوقعه مسبقًا أغضبت هذه الكلمات أبي بشدة، فغضب تمامًا وصرخ بصوت حاد:

- لا تتجرأ على التحدث معي بهذه اللهجة أيها الأحمق.

وصفعني بسرعة ومهارة بطريقته المعتادة على وجنتي مرة فالأخرى صائحًا:

- لقد نسيت نفسك!

عندما كان أبي يصفعني في طفولتي، كان عليَّ أن أظل واقفًا منتصبًا في مكاني ويداي متيبستان عند موضع الدرز في سروالي ناظرًا إليه مباشرة. لكن عندما صفعني الآن انكمشت تمامًا وكأنني لا أزال طفلًا، وحاولت أن أحدق في وجهه. كان أبي كهلًا نحيلًا، لكن لا بد وأن عضلاته الدقيقة كانت عفية كالجلد لأن صفعاته آلمتني بشدة.

ارتددت للخلف، وأمسك بشمسيته وضربني بها عدة مرات على الرأس والكتفين، وفي تلك اللحظة فتحت شقيقتي باب غرفة الاستقبال لكي ترى ما سبب هذه الضجة، لكنها سرعان ما تراجعت في هلع وشعور بالأسف دون أن تتفوه بكلمة واحدة دفاعًا عني.

كانت رغبتي في عدم العودة إلى وظيفتي المكتبية وبدء حياة جديدة كادحة رغبة راسخة وطيدة. لم يتبقَّ لي سوى اختيار نوع العمل، ولم يكن هذا أمرًا صعبًا، فقد كنت أنعم بالقوة الجسدية، فبدا لي أني قادر على تحمل أثقل أنواع العمل. تصورت حياة كادحة رتيبة وسط الجوع والخشونة والنتانة، وانهماك دائم في السعي من أجل لقمة العيش، ومن يعرف؟ لعلي حينما أعود من عملي بشارع دفوريانسكي الكبير أشعر بالحسد من المهندس دولجيكوف الذي يمارس نوعًا من العمل العقلي، ولكن التفكير في المصاعب التي ستواجهني في المستقبل جعلني حينها أشعر بالجذل.

في الماضي حلمت بعمل روحي، وتخيلت نفسي معلمًا أو طبيبًا أو كاتبًا، لكنها ظلت مجرد أحلام. كان ميلي إلى المتع العقلية مثل المسرح أو القراءة شديد الجموح، لكني لم أكن واثقًا من قدرتي على العمل العقلي. كنت أشعر بنفور لا يُقهر من دراسة اللغة اليونانية في المدرسة، حتى اضطروا لإبعادي عن المدرسة في الصف الرابع وآتوني بمعلمين خصوصيين كي يُعِّدوني للالتحاق بالصف الخامس. بعدها عملت في مختلف المؤسسات الحكومية وكنت أقضي الجزء الأغلب من النهار في بطالة كاملة، وقالوا لي إن هذا هو العمل العقلي. في الواقع كان عملي في الحقلين: المدرسي والحكومي لا يتطلب بذل أي جهد عقلي ولا أي موهبة ولا أي قدرات خاصة ولا أي حوافز خلَّاقة مبدعة، فقد كان عملًا آليًّا، وهذا النوع من العمل العقلي في نظري أدنى من العمل البدني، وكنت أُكِنُّ له الاحتقار، ولا أعتقد أن بإمكانه للحظة واحدة أن يُبرِّر هذه الحياة البطَّالة الخالية من الهموم، وهو ليس إلا خداعًا، فهو في الحقيقة صورة أخرى من صور البطالة. أما العمل العقلي الحقيقي فيبدو أني لم أعرفه حقًّا حتى الآن.

خيَّم الليل. كنا نسكن في شارع دفورياسنكي الكبير، وكان هو شارع مدينتنا الرئيس، وفي الأمسيات كان العشاق يتنزهون فيه، وذلك لخلو مدينتنا من المتنزهات، لذا فقد أصبح الشارع بمثابة حديقة عامة إلى حد كبير، إذ كان ينهض على جانبيه شجر الحور برائحته الذكية خاصة بعدما تنديه مياه الأمطار، ومن خلف الأسيجة وعند واجهات المباني نهضت أشجار السنط وشجيرات الليلك العالية وأشجار الكرز والتفاح. ولشد ما كان شفق أيام شهر مايو والبساتين الخضراء بظلالها وروائح الليلك وأزيز الحشرات والسكون والدفء نضرًا فاتنًا، مع أن الربيع يأتي في كل عام! كنت أقف عند البوابة أراقب المارة. لقد ترعرعت وسط كثيرين منهم ومرحنا معًا، أما الآن فلعل وجودي يكدر صفوهم بثيابي القديمة التي لا توافق أحدث الصيحات، وكانوا يقولون عن سروالي الضيق وحذائي الأخرق إنهما بمثابة عصوين من مكرونة غُرسا على متن سفينة. كنت أتمتع بسمعة سيئة في البلدة بسبب أني لا أتمتع بوظيفة توفر لي مكانة اجتماعية لائقة، ولأني كثيرًا ما كنت ألعب البليارد في الحانات الرخيصة، وأخيرًا - على ما أعتقد - لأن أحد الضباط دفعني إلى قسم الشرطة مرتين دون أن أفعل شيئًا يستدعي ذلك.

في المنزل الكبير المقابل لمنزلنا، منزل المهندس دولجيكوف، كان أحدهم يعزف على البيانو. كان الظلام قد بدأ يخيم، والنجوم تتلألأ، وتمشَّى أبي ببطء، وقد ارتدى قبعة أسطوانية قديمة ذات حواف عريضة مقلوبة، متكئًا على ذراع شقيقتي، مجيبًا على تحيات المارة.

قال لشقيقتي مشيرًا إلى السماء بنفس المظلة التي ضربني بها منذ قليل:

- انظري، انظري إلى السماء! حتى هذه النجوم الصغيرة هي عوالم أخرى. كم هي تفاهة الإنسان قياسًا إلى الكون!

وقال هذا؛ أي أن الإنسان تافه، بلهجة تشي بأنه أمر يستحق المديح والسرور إلى أبعد حد. يا له من إنسان يفتقر إلى الموهبة! للأسف كان هو المهندس المعماري الوحيد في البلدة، وحسبما أتذكر لم يُشيِّد منزلًا واحدًا في الخمسة عشر أو العشرين عامًا الأخيرة من دونه. كان إذا لجأ إليه أحد كي يصمم له منزلًا، عادة ما يبدأ برسم الصالة وغرفة الاستقبال، ومثلما كانت الطالبات يبدأن الرقص قديمًا من صوب الموقد، هكذا كانت أفكاره الفنية لا يمكنها أن تبدأ وتتطور إلا من رسم الصالة وغرفة الاستقبال في البداية، ثم يُلصق بهما غرفة الطعام وغرفة الأطفال وغرفة المكتب، ويُوحِّد بين الغرف عن طريق أبواب، وبالتالي تتحول جميعها إلى ممرات، ويصبح لكل منها بابان وأحيانًا ثلاثة لا ضرورة لهم. من المؤكد أن خياله كان يفتقد إلى الوضوح فهو أبتر مشوش إلى أبعد حد ممكن، وفي كل مرة كان يشعر كأن شيئًا ينقصه فيلجأ لتشييد مختلف أنواع الأجنحة الإضافية، واحدًا بجانب الآخر، والآن بإمكاني أن

أرى الردهات الضيقة والممرات الصغيرة والسلالم اللولبية المؤدية إلى الطوابق الوسطى المنتصبة فوق الدور الأرضي، حيث لا يكون بإمكان المرء أن ينتصب إلا منحنيًا، وحيث تكون هناك ثلاث درجات تشبه رفوف الحمام بدلًا من المنبسط المألوف، أما المطبخ فدائمًا ما يكون في الدور تحت الأرضي بأرض قرميدية وقبة. أما الشرفة الخارجية فيرتسم عليها تعبير فظ قاسي، وكانت خطوطها تبدو جافة وجلة، والسقف منخفض مستوي. أما المداخن المسطحة البدينة فتتوِّجها دائمًا أغطية سوداء تطلق صريرًا. ولسبب ما كانت جميع الأبنية التي يشيدها أبي على نفس الطراز، تذكرني بطريقة غامضة بقبعته والجزء الخلفي من رأسه الذي يبدو جافيًا عنيدًا. ومع مرور الوقت تعود سكان البلدة على خيال أبي الفقير، فقد رسخت جذوره وأصبح يعبر عن طراز البلدة.

أدخل أبي نفس الطراز على حياة شقيقتي، بدءًا من تسميتها بكليوباترا، كما أسماني ميسايل. في طفولتها كان يوقع الذعر في نفسها بحديثه عن النجوم وعن حكماء العصور القديمة وعن أسلافنا، وكان يُحدِّثها طويلًا عن معنى الحياة والواجب. الآن، بينما بَلغتْ من العمر السادسة والعشرين، يواصل نفس الأمر، فلا يسمح لها بأن تشبك ذراعها إلا بذراعه، متخيلًا أن شابًّا ما صالحًا لا بد وأن يظهر آجلًا أو عاجلًا ليطلب يدها ليس لشيء إلا بدافع من توقيره لأبيها. أما شقيقتي فكانت تجله بشدة وتخشاه وتصدق أنه يتمتع بعقل استثنائي.

أصبح الظلام حالكًا، وخلا الشارع تقريبًا من المارة، وتوقفت الموسيقى الصادرة عن المنزل المقابل لمنزلنا، وانفتح الباب على مصراعيه وانطلقت ترويكة ([2])، وانبعث صوت ناعم من أجراسها. إنه المهندس وقد خرج ابتغاء التنزه مع ابنته. حسنًا، حان موعد النوم!

كانت لديَّ غرفة خاصة بي في المنزل، لكني كنت أعيش في سقيفة بالفناء الخارجي كانوا قد بنوها سابقًا ربما لحفظ عدة الجياد، يظللها سقف مصنوع من الطوب، وكانوا قد ثبتوا على الجدران كلَّابات ضخمة، ولكن السقيفة لم يعد لها استعمال الآن، وجرت العادة طوال الثلاثين عامًا الماضية أن يخزن فيها أبي صحفه التي كان يجمعها لسبب ما في مجلدات نصف سنوية، ولا يدع أحدًا يمسها. كانت معيشتي في تلك السقيفة تبعدني قدر الإمكان عن أنظار والدي وضيوفه، وبدا لي أني إن لم أعش في غرفة حقيقية ولم أتناول الغداء كل يوم مع أبي، ستفقد كلماته التي يقول فيها إني أعيش عالة عليها وقعها المرير على نفسي كانت شقيقتي في انتظاري لقد جلبت لي العشاء خفيةً عن أبي، وكان مكونًا من رقاقة صغير من لحم عجل بارد وقطعة خبز. في بيتنا عادة ما كانت هاتان المقولتان تتكرران كثيرًا: «الاقتصاد يجلب المال» -

«المال يعتني بنفسه»، وما إلى ذلك، لذا، بتأثير من مثل هذا الهراء كانت شقيقتي دائمًا ما تحاول اقتصاد النفقات، وبالتالي كنا نتناول طعامًا سيئًا. بعد أن وضعت الطبق على الطاولة جلست على فراشي وأخذت تبكي قائلة:

- ميسايل، لماذا تعاملنا هكذا؟

ولم تحجب وجهها، فتساقطت الدموع على صدرها ويديها، وارتسم تعبير بائس على وجهها. انطرحت على الوسادة وأطلقت العنان لدموعها، وجسدها كله يرتجف من النشيج. قالت:

- تركت وظيفتك مجددًا.... آآه، يا له من أمر مريع!

فقلت لها، وقد استولى عليَّ اليأس من بكائها:

- حاولي أن تفهميني يا شقيقتي. حاولي أن تفهميني.

نفد الكيروسين من مصباحي، كما لو أن الأمر متعمدًا، فانبعث منه دخان وأوشك نوره على الانطفاء، ونظرت الكلّابات القديمة المثبتة على الحائط بقسوة وارتعشت ظلالها.

قالت شقيقتي وقد استوت في جلستها:

- أشفق علينا. أبانا في حالة من الحزن المريع، وأنا مريضة، أوشك على الجنون. ماذا سوف يحل بك؟

هكذا سألت وهي تنتحب وتمد ذراعيها نحوي، وأكملت:

- أرجوك، أتوسل إليك، من أجل خاطر أمنا الغالية، أن تعود إلى وظيفتك.

- لا أستطيع يا كليوباترا! لا أستطيع!

هكذا أجبتها شاعرًا أنها إن استمرت على هذا المنوال سأرضخ لها عما قريب. واصلت قائلة:

- ولكن لماذا؟ لماذا؟ إن كنت لا تستطيع التفاهم مع هذا المدير فابحث عن وظيفة أخرى. لماذا لا تلتحق بوظيفة في السكك الحديدية مثلًا؟ لقد تحدثت لتوي مع أنيوتا بلاجوفو، وهي تؤكد أنه من الممكن قبولك في السكك الحديدية، حتى إنها وعدت أيضًا بأن تبذل أقصى جهدها من أجل ذلك بحق اللّه يا ميسايل فكِّر في الأمر أتوسل إليك أن تفكر في الأمر.

وتحدثنا قليلًا ثم استسلمت، قلت لها إن فكرة العمل بالسكك الحديدية - التي لا تزال قيد الإنشاء - لم تخطر على بالي، وأني مستعد للمحاولة إن كان ذلك يرضيها.

لاحت ابتسامتها من بين الدموع، وربتت على يدي، ثم عادت للبكاء ثانيةً كما لو أنها لا تستطيع التوقف، بينما ذهبتُ إلى المطبخ إلتماسًا لبعض الكيروسين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



كان آل أجوكين القاطنون في منزلهم الخاص بشارع دفوريانسكي الكبير هم أول المناصرين لإقامة تلك المسرحيات التي يمثلها الهواة، والحفلات الموسيقية والمشاهد الصامتة التي تقام لأهداف خيرية. كانوا يوفرون القاعة دائمًا ويأخذون على عاتقهم حل كافة المشكلات ودفع النفقات. كان أفراد هذه الأسرة من ملّاك الأراضي الأغنياء، ولديهم ضيعة تبلغ مساحتها ما يقرب من ثلاثة آلاف ديسياتين بالإضافة إلى مسكن فخم، لكنهم لم يكن لديهم إعجاب بالريف وكانوا يقضون أشهر الصيف والشتاء بالبلدة. كانت الأسرة تتألف من الأم، وهي طويلة القامة نحيلة الجسم، وسيدة رقيقة الشعور ذات شعر وسترة قصيرتين وتنورة بسيطة على الطراز الإنجليزي، بالإضافة إلى ثلاث بنات حينما يتحدث أحد عنهن لا يناديهن بأسمائهن، بل ببساطة بالكبرى والوسطى والصغرى. كنَّ جميعًا يتمتعن بذقون حادة وقصر نظر وأكتاف مقوسة، وكنَّ يرتدين كما ترتدي أمهن، ويلثغن على نحو سيئ، وبالرغم من ذلك، كن دائمًا ما يشتركن في كل عرض، ويقمن دائمًا بعمل خيري ما سواء كان تمثيلًا أو قراءة أو غناءً كنَّ يقمن بذلك بجدية بالغة ولا يبتسمن أبدًا، وحتى عندما يقمن بأداء مسرحية هزلية موسيقية، كنَّ يفعلن ذلك بلا أدنى قدر من السرور وبطريقة عملية وكأنهن يجرين بعض الحسابات.

كنت أحب مسرحياتنا، وخاصة تلك البروفات الساذجة التي تُعاد مرارًا، الساذجة بعض الشيء، والتي كانت تُتبع دائمًا بالدعوة إلى العشاء. لم يكن لي أي دور في اختيار المسرحيات أو توزيع الأدوار. كان دوري ينحصر خلف الكواليس. كنت أتولى أمر الديكورات وأنسخ الأدوار وأقوم بدور الملقن وأتولى أمر المكياج الخاص بوجوه الممثلين. كانوا أيضًا يعهدون إليَّ بـأداء كافة الأصوات أو المؤثرات التي يتطلبها العرض من قبيل الرعد والغناء وشدو العندليب. وبما أني لم تكن لديَّ وظيفة تكفل لي وضعًا اجتماعيًّا مرموقًا ولا كنت أرتدي ثيابًا لائقة في نظرهم، كنت أتجنب الاتصال بهم أثناء البروفات، وأمكث خلف الكواليس معتصمًا بحبل الصمت.

كنت أتولى أمر ديكورات وزخرفة جدران سقيفة أو فناء منزل آل أجوجين، وكان يمد لي يد العون في ذلك أندريه إيفانوف، وهو دهَّان أو كما يطلق على نفسه، متعهد أعمال الدهان. يبلغ من العمر خمسين عامًا، وهو فارع الطول، شديد النحافة، شاحب الوجه، ذو صدر غائر، وكذلك هو الحال مع صدغيه، ويظلل عينيه لون أزرق يضفي عليه منظرًا مرعبًا بعض الشيء. كان مريضًا بمرض مُضْنٍ، ومع حلول كل ربيع وخريف يقول الناس عنه إنه سوف يهلك، لكنه يتعافى ويفارق فراشه ويقول بدهشة: «نجوت مرة أخرى من الموت!».

كانوا يدعونه في البلدة «ريدكا» ويقولون إن هذا هو اسم عائلته الحقيقي. كان مولعًا بالمسرح مثلي، وفور أن يعرف أن عرضًا ما سوف يُقام قريبًا حتى يُنحِّي عنه كل عمل آخر ويهرع إلى منزل آل أجوجين ويبدأ في إعداد الديكورات.

في اليوم التالي لحديثي مع شقيقتي عملت منذ الصباح وحتى المساء في منزل آل أجوجين. كان موعد البروفة قد تحدد في السابعة مساءً، وقبل أن يحين الموعد اجتمع كل الهواة، وأخذت بنات أجوجين الكبرى والوسطى والصغرى يذرعن أرض المسرح جيئةً وذهوبًا وهن يقرأن أدوارهن من دفاتر في أيديهن. كان ريدكا يرتدي معطفًا طويلًا ضاربًا إلى الحمرة ووشاحًا ملفوفًا حول عنقه، واقفًا مستندًا بصدغه على الجدار، يراقب ما يحدث على المسرح بورع ووجل. مضت الأم أجوجينا إلى الضيوف واحد تلو الآخر، وكانت تقول كلمة طيبة لكل منهم. كانت لها طريقتها الرائعة في النظر إلى وجه محدثها والتحدث بصوت خفيض كما لو أنها تفشي سرًّا ما.

قالت بهدوء وهي تقترب مني:

- لا بد وأن رسم الديكورات على الجدران أمر صعب. كنت أتحدث إلى السيدة موفكا عن الخرافات عندما رأيتك تدخل. يا إلهي! لقد انخرطت طوال حياتي في صراع مع الخرافات، وحتى أتمكن من إقناع الخدم بأن مخاوفهم هي هراء محض، كنت أشعل بنفسي دائمًا ثلاث شموع وأستهل أي عمل هام في الثالث عشر من الشهر ([3]) .

ثم جاءت ابنة المهندس دولجيكوف، وهي فتاة جميلة شقراء، وكما يُقال، فإن ثيابها جميعًا من باريس. لم تكن مشتركة في التمثيل، لكن كانوا يضعون لها في البروفات مقعدًا في الصف الأمامي للمسرح ولا يبدأ التمثيل إلا بعد أن تجلس وتخطف أنظار الجميع بثيابها الفاخرة. وبما أنها من فاتنات العاصمة كان يُسمح لها أثناء البروفة أن تدلي ببعض الملاحظات، وكانت تفعل ذلك بابتسامة عذبة لطيفة ليبدو الأمر كما لو أنها تنظر إلى العرض بوصفه تسلية صبيانية. كان يُقال عنها إنها درست الغناء في كونسيرفاتوار سان بطرسبرج، بل إنها غنت طوال أشهر الشتاء في دور أوبرا خاصة. كانت تروق لي كثيرًا، وبالتالي لم أكن أنحي بصري عنها طوال مدة البروفات.

كنت قد أمسكت بدفتري كي أقوم بدور الملقن، حتى ظهرت شقيقتي فجأة. اقتربت مني قائلة دون أن تخلع معطفها أو قبعتها:

- أرجوك تعال الآن.

مضيت معها، ووجدت أنيوتا بلاجوفو خلف الكواليس معتمرة قبعتها ويغطي وجهها حجاب داكن. كانت ابنة مساعد رئيس المحكمة الذي شغل هذا المنصب في مدينتنا منذ زمن بعيد، تقريبًا منذ أن أنشئت المحكمة. ولأنها كانت فارعة الطول وجميلة القسمات كان اشتراكها في اللوحات الصامتة أمرًا لا مناص منه، وعندما كانت تؤدي دور جنية ما، أو أي مشهد يشي بالكبرياء، كان وجهها يحمر خجلًا، لكنها لم تكن تشارك في العروض، لكنها تكتفي بحضور البروفات للحظة ثم تنصرف لعمل ما دون أن تدخل إلى القاعة، وكان من الواضح في تلك اللحظة أنها أقبلت منذ هنيهة.

قالت بجفاف وقد احمرّ وجهها، ولم تنظر حتى إليَّ:

- تحدث والدي بشأنك، ووعد دولجيكوف بأن يسند لك عملًا بالسكك الحديدية. مر عليه غدًا. سوف يكون بمنزله.

انحنيت إليها وشكرتها على ما تكبدته من عناء. فقالت لي وقد أشارت إلى دفتر المسرحية:

- ويمكنك أن تنحي عنك الآن هذا.

ثم مضت هي وشقيقتي إلى أجوجينا، وأخذتا تتهامسان معها لدقيقتين وهن ينظرن إليَّ. كنَّ يتشاورن في أمر ما.

قالت أجوجينا بهدوء وهي تقترب مني وتنظر إليَّ بلطف:

- نعم، حقًّا... إن كان هذا يصرفك عن القيام بالأمور الجدية.

وتناولت مني الدفتر وأكملت:

- يمكنك أن تسلمه لشخص آخر. لا تقلق يا صديقي، ولتذهب عسى أن يبارك اللّه طريقك.

ودعتها وغادرت وقد استولى عليَّ الارتباك. أثناء هبوطي درجات السلم رأيت شقيقتي وهي تنصرف بصحبة أنيوتا بلاجوفو. كانتا تتحدثان بابتهاج عن أمر ما، لا بد وأنه أمر إلتحاقي بالعمل في السكك الحديدية، وكانتا تحثان الخطى. لم تأتي شقيقتي إلى أي بروفة من بروفاتنا من قبل، وربما ضميرها يعذبها الآن وقد استولى عليها الخوف من أن يكتشف أبي ذهابها إلى منزل آل أجوجين دون إذنه.

في اليوم التالي توجهت إلى دولجيكوف في الساعة الواحدة. اصطحبني الخادم إلى غرفة جميلة جدًّا، واتضح أنها غرفة الاستقبال، وفي الوقت ذاته يستخدمها المهندس كغرفة مكتب له. كان كل شيء فيها مريحًا فاخرًا، مما جعل الأمر يبدو غريبًا لمن لم يألف ذلك مثلي؛ سجاد فاخر، ومقاعد ضخمة

وتماثيل برونزية ولوحات فنية وأطر مذهبة فخمة، ونساء فاتنات ذوات أوجه مليحة ذكية على اللوحات المعلقة على الجدران في أوضاع متكلفة، وهناك باب في الغرفة يؤدي إلى شرفة تطل على الحديقة مباشرةً، حيث يمكن للمرء هناك أن يرى أشجار الليلك ومائدة أعدت من أجل الغداء، وعليها زجاجات كثيرة وباقة ورد، حيث يفوح عبير الربيع والسيجار الفاخر؛ عبير السعادة، وبدا كل شيء كما لو أنه يقول:

«هنا رجل عاش وعمل ونال في آخر الأمر أقصى سعادة ممكنة على سطح الأرض». كانت الابنة جالسة إلى الطاولة منهمكة في قراءة إحدى الصحف. سألتني:

- هل تطلب لقاء أبي؟ إنه يستحم وسيأتي حالًا. تفضل اجلس وانتظر.

جلست. بعد برهة من الصمت سألتني ثانيةً:

- أعتقد أنك تسكن مقابلنا. أليس كذلك؟

- بلى.

- إني من فرط السأم أراقبك كل يوم من النافذة، فاعذرني. (ثم أكملت وهي تنظر إلى الصحيفة) وكثيرًا ما أراك أنت وشقيقتك. دائمًا ما يرتسم على وجهها تعبير طيب وتبدو مستغرقة في التفكير.

أقبل دولجيكوف. كان يجفف عنقه بمنشفة. قالت الابنة:

- بابا، إنه السيد بولوزنيف ([4]).

توجه نحوي بحيوية، وقال دون أن يمد يده لمصافحتي:

- نعم، نعم، لقد حدثتني بلاجوفو عن أمره. ولكن اسمع: ماذا يمكنني أن أقدم إليك؟ فما الوظائف التي لديَّ على أي حال؟ غريب أمركم أيها الناس!

وواصل التحدث بصوت مرتفع بتلك اللهجة التي تشي بالتأنيب:

- يأتيني ما يقرب من عشرين فردًا في اليوم، متصورين أني رئيس دائرة من الدوائر! أيها السادة، إني أنشئ خطًّا حديديًّا، وليست لديَّ فرص سوى أعمال شاقة جدًّا. أنا في حاجة مثلًا إلى ميكانيكيين وحدادين وحفارين ونجارين وعمال لشق الآبار، لكنكم لا تستطيعون فعل شيء أكثر من الجلوس والكتابة. جميعكم موظفون مكتبيون!

وبدا أن تلك السعادة التي كانت تطفح من سجاده وكراسيه تلوح عليه هو شخصيًّا. كان ممتلئًا معافى ذا وجنتين متوردتين، وصدر واسع، نظيفًا، يرتدي قميصًا قطنيًّا وسروالًا واسعًا، وقد بدا وكأنه دمية خزفية لحوذي. كانت لحيته

مجعدة مستديرة لم يغزها الشيب ولا بشعرة واحدة، وأنفه معقوفًا، وعيناه داكنتين صافيتين بريئتين.

أكمل قائلًا:

- ماذا يمكنك أن تعمل؟ لا بد وأنك لا تستطيع فعل شيء! أنا مهندس ذو مركز راسخ، ولكن قبل أن يعهدوا إليَّ بهذا العمل عانيت طويلًا، فقد عملت كميكانيكي، بالإضافة إلى عامين من العمل في بلجيكا كمزيِّت للآلات. احكم أنت بنفسك يا عزيزي: أي عمل يمكنني أن أقدمه إليك؟

تمتمت باضطراب شديد دون أن أنظر إلى عينيه الصافيتين البريئتين:

- بالطبع أنت على حق...

وبعد أن فكر لبرهة سألني:

- لكن يمكنك على الأقل أن تعمل على آلة. أليس كذلك؟

- نعم، لقد عملت في التلغراف.

- إمم! حسنًا، سوف نرى. فلتذهب الآن إلى دوبتشنيا. لديَّ رجل هناك، لكنه بائس جدًّا.

- وما الذي سيكون عليَّ أن أقوم به؟

- سنرى. اذهب الآن إلى هناك، وسوف أقوم بترتيباتي. كل ما أريده منك ألَّا تعاقر الخمر، وألَّا تزعجني بأي مطالب، وإلا صرفتك.

وتركني دون حتى أن يهز لي رأسه. انحنيت له ولابنته التي كانت منهمكة في قراءة إحدى الصحف، وغادرتُ المكان. كنت مغمومًا إلى درجة أني لم أستطع أن أتفوه بكلمة واحدة عندما سألتني شقيقتي كيف استقبلني المهندس.

استيقظت باكرًا مع شروق الشمس كي أذهب إلى دوبتشنيا. لم يكن هناك أحد في شارعنا؛ شارع دفوريانسكي الكبير، فقد كان الجميع لا يزالون يغطون في النوم، وكان وقع خطواتي يتردد وحده على نحو كئيب، وقد ملأت أشجار الحور التي بلل الندى أوراقها الهواء بعبير لطيف. كنت أشعر بالحزن ولم تكن لي رغبة في مغادرة البلدة. كنت أحب مسقط رأسي. كم بدت لي جميلة ودافئة! كنت أحب هذه الخضرة، وتلك الأيام الصباحية المشمسة الهادئة وأنغام أجراسنا، لكن الناس الذين كنت أعيش في وسطهم في تلك البلدة كانوا يبعثون على الملل، كانوا غرباء وأحيانًا فاسدين. لم أكن أحبهم أو حتى أفهمهم.

لم أكن أفهم الهدف الذي يعيش من أجله هؤلاء الخمسة وستون ألف نسمة، ولا حتى علامَ يعيشون؟ كنت أعرف أن أهل بلدة كيمري يكسبون رزقهم بصنع الأحذية، بينما يصنع أبناء تولا السماورات والبنادق، وأوديسا ميناء بحري، ولكنني لم أفهم قط ماذا كانت مدينتنا تحديدًا، أو ما الذي يقوم به أبناؤها؟ كان سكان شارع دفوريانسكي الكبير وشارعين آخرين أفضل منه يعيشون على العائد من رؤوس الأموال الموجودة سلفًا، وعلى المرتبات التي يقبضها الموظفون من خزانة الدولة، ولكن كيف كان يرتزق أبناء الشوارع الأخرى الممتدة على خطوط متوازية لما يقرب من ثلاثة فرست ([5]) المتوارية خلف الرابية؟ ظل هذا الأمر لغزًا محيرًا لي إلى الأبد. والحقيقة أن المرء يشعر بالخزي من وصف كيف كان يعيش أولئك الناس. لا حديقة ولا مسرح ولا فرقة موسيقية لائقة، ولم يكن أحد يزور المكتبة العامة أو نادي المكتبة سوى شباب اليهود، لذا كانت المجلات والكتب الجديدة تظل في مكانها دون أن تمسها يد. كان الأغنياء والمثقفون ينامون في غرف ضيقة خانقة فوق أسرة خشبية يسرح فيها البق، أما أطفالهم فيبقون في غرف مريعة قذرة يدعونها: «حجرات أطفال»، وبالنسبة للخدم - حتى الكبار منهم والمحترمون - فكانوا ينامون في المطبخ على الأرض المفروشة ببعض الأسمال. في الأيام العادية كانت رائحة البورش ([6]) تفوح من المنازل، وفي أيام الصوم تفوح رائحة سمك الحفش المطبوخ بزيت عباد ([7]) الشمس. الطعام غير شهي ومياه الشرب غير صحية، وقد أخذ الناس يتحدثون لأعوام وأعوام في مجلس البلدة وفي بيت المحافظ وفي منزل الكاهن وفي كافة المنازل عن أن البلدة لا تنعم بمياه شرب صحية ورخيصة، وأنه من الضروري الحصول على قرض بمائتي ألف روبل من خزانة الدولة لتسوية هذه المسألة، وكان الأثرياء الذين يمكن للمرء في مدينتنا أن يحصي منهم ثلاثين فردًا على الأقل، والذين كان بإمكانهم أن يخسروا أحيانًا في لعب الورق ضيعات كاملة، يشربون هم أيضًا من تلك المياه السيئة، وقد انهمكوا طوال حياتهم في التحدث بحماسة عن ذلك القرض. لم يكن بإمكاني أن أفهم ذلك، فقد بدا لي أنه من الأسهل لو دبروا هم هذا المبلغ مما لديهم من أموال.

لم أعرف في هذه البلدة بأكملها رجلًا واحدًا شريفًا. كان أبي يقبل الرشاوى متخيلًا أنهم يعطونها إياه احترامًا لسجاياه الخلقية الرفيعة. في المدارس كان الطلبة الراغبون في الانتقال من صف للآخر يدعون مدرسيهم لتناول الطعام في منازلهم، وينفقون عليهم مبالغ باهظة، أما زوجة القائد العسكري فكانت تأخذ الرشاوى من المجندين الجدد أثناء فترة تجنيدهم، بل وتقبل منهم الشراب، حتى إنها لم تستطع ذات مرة أن تقف على قدميها في الكنيسة من فرط السُّكر. كان الأطباء هم أيضًا يقبلون الرشاوى حينما يقومون بالفحص الطبي للمقبلين على التجنيد، بينما كان طبيب البلدة والطبيب البيطري

يفرضان إتاوات شهرية على متاجر اللحوم والمطاعم. وفي مدرسة المقاطعة كانوا يتاجرون بالشهادات التي تمنح أصحابها بعض التسهيلات في الخدمة العسكرية، ويقبل المديرون الرشاوى من مرؤوسيهم، وكذلك رجال الكنيسة الكبار من الكهنة الصغار. وفي مجلس البلدة والمستشفيات وفي كافة الدوائر الأخرى دائمًا ما كان أصحاب المصالح يسمعون نفس الصيحة: «لا تنسوا تقديم فروض الشكر»، فيعود الواحد منهم ليدفع من ثلاثين إلى أربعين كوبيكا. أما أولئك الذين لم يقبلوا الرشاوى، مثل بعض القضاة، فكانوا شديدي الكبرياء، ولا يصافحونك إلا بإصبعين، ويتحلون بالبرودة وضيق الأفق، ويلعبون الورق ويشربون كثيرًا، ويتزوجون من نساء ثريات ويؤثرون على من حولهم تأثيرًا ضارًّا مهلكًا. وحدهن الفتيات هن اللاتي كن يتمتعن بالطهارة الأخلاقية، وكانت قلوب أغلبهن عامرة بالنوايا النبيلة وقلوبهن صافية، لكنهن لم تكن لهن خبرة بالحياة، وصدقن أن الرشاوى تقدم إلى المرء احترامًا لسجاياه الخلقية الرفيعة، وإذا تزوجن هرمن سريعًا وانغمسن بيأس في غمرة الحياة البرجوازية الفاحشة المبتذلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3--

كانوا ينشئون خطًّا حديديًّا عندنا، ففي عشية الأعياد كانت الشوارع تمتلئ بأشخاص ذوي أسمال بالية كانوا يطلقون عليهم «عمال السكك الحديدية» ويتوجسون قلقًا منهم.

كان يحدث مرارًا أن أرى واحدًا من هؤلاء ذوي الأسمال الرثة يُقاد إلى مركز الشرطة ووجهه ملطخ بالدماء ورأسه مكشوفة بلا قبعة، ومن خلفه من يحمل سماورًا أو ثيابًا قطنية لا تزال رطبة من أثر الغسل كدليل مادي على السرقة. كان عمال السكك الحديدية عادة ما يحتشدون عند الحانات والأسواق. كانوا يأكلون ويشربون ويسبون، ويشيعون كل امرأة تمر بجوارهم بصفير بذيء. وكان أصحاب المتاجر يُسكرون الكلاب والقطط كي يسلوا هذا الجمع الجائع رث الثياب أو يربطون بذيل الكلب صفيحة كيروسين ويصفرون، فيندفع الكلب في الشارع، ويحدث جر الصفيحة صوتًا عاليًا، فيرتجف الكلب هلعًا ظنًّا منه أن وحشًا يطارده، ويظل يركض سريعًا حتى يخرج من البلدة وصولا إلى الريف وتخور قواه. كانت لدينا في البلدة عدة كلاب ترتجف دائمًا وذيولها تهتز، وكانوا يقولون عنها إنها لم تستطع احتمال هذا اللهو بها فجنت.

كانت المحطة تُشيَّد على بعد خمسة فرستات من البلدة. قيل إن المهندسين طلبوا رشوة قدرها خمسين ألف روبلًا كي يمدوا الخط حتى البلدة مباشرةً، ولكن مجلس البلدة لم يوافق إلا على أربعين ألفًا فقط، ولم يتم الاتفاق بسبب العشرة آلاف المتبقية، والآن يشعر أهل البلدة بالندم على ذلك، فقد توجب عليهم مد الطريق حتى المحطة، والذي تبين أنه سوف يكلفهم مبلغًا أكبر. كانت القضبان الحديدية والعوارض الخشبية موضوعة على طول الخط، وقطارات الخدمة تنقل مواد البناء والعمال، ولم يتعطل العمل إلا بسبب الجسور التي كان يشيدها دولجيكوف، ولم تكن المحطات قد انتهوا من تشييدها بعد.

كانت محطة دوبيتشنيا - وهو الاسم الذي أطلقوه على محطتنا الأولى - تقع على بعد سبعة عشر فرستًا من البلدة. سرت المسافة بأكملها. وقد لاحت الحقول الخضراء التي تكتنفها شمس الصباح خضراء زاهية. كان المكان منبسطًا يبعث على السرور، ولاحت المحطة من على بعد بوضوح، وكذلك الروابي والمزارع البعيدة. يا لجمال ذلك الفضاء الواسع! كم تقت لو يمتلئ وعيي بالشعور بالحرية، حتى لو في ذلك الصباح فقط، بحيث لا أفكر في شيء قد حدث في البلدة ولا أنشغل باحتياجاتي ولا حتى بالرغبة في تناول الطعام!. أكثر ما كان بإمكانه أن يُكدِّر حياتي هو ذلك الشعور الحاد بالجوع، حين تتحول أسمى أفكاري بشكل غريب إلى تخيل عصيدة الحنطة السوداء

وشطائر اللحم والسمك المشوي. ها أنا واقف وحدي في هذا الفضاء الفسيح أنظر إلى قبرة ([8]) تطير في الهواء تغرد بشكل هيستيري بينما أفكر في نفسي: «ما أجمل أن أنعم الآن بخبز وزبد!»، وأجلس على حافة الطريق إلتماسًا للراحة، وأغلق عيني وأنصت لذلك الضجيج الفاتن الذي لشهر مايو، فأجد نفسي أفكر في رائحة البطاطس الساخنة! ورغم طول قامتي وقوة بنيتي كان عليَّ دائمًا أن أقنع بكمية قليلة من الطعام، ولذلك كان الجوع هو الشعور الغالب طوال النهار، وربما هذا ما جعلني أدرك بوضوح لماذا يكدح كل هؤلاء الناس لمجرد الحصول على كسرة خبز ولا يمكنهم الحديث عن شيء سوى الطعام.

كانوا يجصصون جدران المحطة من الداخل في دوبيتشنيا، ويشيدون طابقًا خشبيًّا علويًّا حتى يتمكنوا من الضخ. كان الجو حارًّا وقد فاحت رائحة الجير، والعمال يتسكعون بتكاسل بين أكوام الخشب والنفايات، وكان عامل التحويلة نائمًا قرب كوخه وأشعة الشمس تتوهج على وجهه. لم تكن ثمة شجرة واحدة، بينما تئز أسلاك البرق بوهن، والصقور واقفة عليها تنعم بالراحة. وفيما كنت أتسكع أنا أيضًا بين الركام غير عالم ماذا أفعل تذكرت أني عندما سألت المهندس عن طبيعة عملي أجابني: «سنرى!»، ولكن ما الذي يمكن لمرء أن يراه وسط هذا القفر؟ تحدث الجصاصون عن كبير عمال وعن شخص يُدعى فيدوت فاسيليف حديثًا لم أفهمه، ورويدًا رويدًا تملكني الإنهاك؛ ذلك الإنهاك الجسدي الذي يشعر به المرء في ذراعيه وساقيه وجسده الضخم كله ولا يعرف ماذا يفعل به أو أين يضعه.

وبعد أن أخذت أسير هنا وهناك لساعتين على الأقل، لاحظت أن ثمة أعمدة تلغراف موجودة على يمين المحطة، وأنه على بعد فرست ونصف أو 2 فرست تنتهي الأعمدة عند جدار حجري أبيض. قال العمال إن المكتب يقع هناك، فقلت في نفسي: إن هذا هو المكان الذي يتوجب عليَّ الذهاب إليه.

كان منزل ضيعة قديمة مهجورة، وسياجه من حجر أبيض ذي مسام قد صمد حينًا ثم تهاوت بعض أجزائه، أما المبنى الملحق الذي كان يطل على الحقل مباشرةً، فكان سقفه صدئًا مرقعًا برقاقات لامعة من الصفيح، وكان بإمكان المرء أن يرى من بوابته ساحة متسعة تكسوها أعشاب برية، ومنزلًا فخمًا عتيقًا ذا نوافذ مزودة بواقيات من أشعة الشمس ذا سقف مرتفع قد احمرّ لونه بفعل الصدأ. على جانبي المنزل نهض جناحان إضافيان متماثلان، أحدهما ذو نوافذ مسمرة بألواح خشبية، أما الآخر ذو النوافذ المفتوحة فكانت بعض الثياب منشورة وتطوف هناك مجموعة من العجول. كان آخر عمود من أعمدة التلغراف ينتصب هناك في الفناء، ويمتد السلك منه إلى نافذة الجناح الإضافي ذي الجدار الأبيض المطل على الحقل. كان الباب مفتوحًا، لذا

دخلت. كان يجلس إلى الطاولة بجانب آلة التلغراف أحد السادة ذو شعر قاتم مجعد يرتدي معطفًا مصنوعًا من أشرعة المراكب، وبالكاد نظر إليَّ نظرة عابسة، لكن سرعان ما ابتسم وقال:

- أهلًا يا «أفضل من لا شيء»!

كان ذلك الرجل هو إيفان تشيبراكوف، وقد كان رفيقًا لي في المدرسة وقد فصلوه من الصف الثاني بسبب التدخين. ذات حين إبان الخريف كنا نصطاد معًا الحساسين والبلابل الزيتونية ونبيعها في السوق في الصباح الباكر بينما يكون آباؤنا لا يزالون غارقين في نومهم. وكنا نقطع الطريق على أسراب الزرازير المهاجرة ونطلق عليها قذائف صغيرة ونلملم الطيور المصابة منها، فيموت بعضها بين أيدينا بعد آلام مبرحة، وما زلت حتى اليوم أذكر كيف كانت تئن طوال الليل داخل القفص، أما بعضها الآخر الذي يمكنه أن يتعافى، فكنا نبيعها ونقسم بوقاحة أن جميعها ذكور. ذات يوم بعتها جميعًا في السوق عدا واحد كنت قد عرضته طويلًا على المشترين ولم يرتضِ أحد شراءَهُ، وفي النهاية بعته بكوبيك واحد، فقلت وقتها معزيًا نفسي: «حسنًا، أفضل من لا شيء!»، وخبأت الكوبيك، ومنذ ذلك الوقت كان الصبية وأصحاب المتاجر يغيظونني بندائي عليَّ بهذا اللقب، مع أن أحدًا سواي لم يكن يذكر من أين أتت هذه التسمية.

لم يكن تشيبراكوف قوي البنية. كان ذا صدر هزيل، مقوس الكتفين، ذا ساقين طويلتين. كان يستخدم خيطًا صغيرًا رابطة لعنقه، ولا يرتدي صدرية، أما حذاؤه فأسوأ من حذائي وذو كعب مائل. كان من النادر أن تطرف عيناه، ويرتسم على وجهه تعبير متحفز وكأنه يوشك على أن يقبض على شيء، وكان دائمًا منفعلًا. قال لي:

- انتظر قليلًا، اسمعني، عمَّ كنت أتحدث لتوي؟

وانخرطنا في الحديث، وعرفت منه أن هذه الضيعة التي أنا فيها الآن كانت حتى وقت قريب لا تزال ملكًا لآل تشيبراكوف، ولم تنتقل ملكيتها إلى المهندس دولجيكوف إلا في الخريف الماضي الذي رأى أن استثمار أمواله عبر الأرض أنفع له من الاحتفاظ بها كأموال نقدية، لذا اشترى ثلاث ضيعات مرهونة في منطقتنا، وفي تلك الصفقة احتفظت والدة تشيبراكوف بحق الحياة في أحد هذه الأبنية الملحقة بالمنزل الكبير عامين آخرين، وكفلت لابنها وظيفة في المكتب.

قال تشيبراكوف عن المهندس:

- وكيف كان يمكن ألا يشتري؟! انظر إلى ما ينهبه من المقاولين وحدهم! إنه يسلب الجميع.

ثم دعاني لتناول الغداء، وقد قرَّر في حماسة أن يدعني أعيش معه في هذا الجناح الملحق، وأن تتولى أمه إطعامي. قال:

- إنها بخيلة بعض الشيء، لكنها لن تطلب منك مبلغًا ضخمًا.

كانت غرف ذلك المنزل الذي تعيش فيه أمه ضيقة للغاية، حتى الردهة الداخلية وغرفة الانتظار كانتا تغصان بالأثاث الذي تم نقله من المنزل الكبير إلى هنا بعد بيع الضيعة، وكان الأثاث بأكمله عتيقًا مصنوعًا من خشب الماهجوني. كانت السيدة تشيبراكوفا، وهي امرأة عجوز بدينة ذات عينين صينيتين منحرفتين، جالسة على مقعد ضخم عند النافذة تحيك جوربًا. استقبلتني بترحاب شديد. قدمني إليها تشيبراكوف قائلًا:

- ماما، هذا بولوزنيف. سوف يعمل هنا.

سألتني بلهجة غريبة كريهة، وقد بدا كما لو أن مقدارًا من الدهن يغلي في حلقها:

- هل أنت من النبلاء؟

أجبتها:

- نعم.

- اجلس.

كان الغداء رديئًا. لم يُقدَّم شيء سوى فطائر محشوة بلبن خائر مُر بالإضافة لحساء الحليب. طوال الوقت كانت يلينا نيكوفوروفنا تغمز لي بإحدى عينيها حينًا، ثم بالأخرى بشكل غريب. كانت تتحدث وتأكل، ومع ذلك كان هناك شيء يشي بالموت في جسدها بأكمله، حتى إنه قد يُخيّل للمرء أن رائحة جيفة طفيفة تفوح من جسدها. كانت الحياة بالكاد تومض في جسدها؛ ومضة من الوعي لحقيقة أنها كانت ذات يوم سيدة تمتلك أقنانًا، وأنها كانت زوجة لأحد القادة العسكريين الذي كان يتوجب لخدمه أن يخاطبونه قائلين: «يا صاحب السعادة»، وحين كانت تومض هذه الأفكار الواهنة بداخلها لبرهة كانت تقول لابنها:

- جان، إنك لا تمسك بالسكين على نحو صحيح!

أو تقول لي وهي تأخذ نفسًا عميقًا، وتتظاهر بأنها مضيفة ترغب في إكرام ضيفها:

- أنت تعرف أننا بعنا ضيعتنا. أمر مؤسف بالطبع. لقد آلفنا الأمر، ولكن دولجيكوف قد وعدنا بأن يجعل جان رئيسًا لمحطة دوبيتشنيا، وبذلك لا نرحل عن هنا، ونعيش هنا في المحطة كأننا نحيا في ضيعتنا الخاصة. يا لطيبة المهندس! ألا تعتقد أنه لطيف جدًّا؟

حتى وقت قريب كان آل تشيبراكوف يعيشون حياة باذخة، ولكن بعد موت الجنرال تغير كل شيء. أصبحت يلينا نيكيفوروفنا تتشاجر كثيرًا مع الجيران، وتذهب إلى المحافظ، وتتخلف عن الدفع للدكاكين والعمال. كانت تخشى دائمًا أن تتعرض للسرقة. لم تمر عشرة أعوام حتى تغيرت دوبيتشنيا تمامًا بحيث لم يعد بمقدور من كان يعرفها سابقًا أن يتعرف عليها الآن.

خلف المنزل الكبير كانت هناك حديقة قديمة قد توحشت وتبلدت ونمت فيها الأعشاب البرية والأجمات. مضيت في الشرفة الخارجية جيئةً وذهوبًا، وكانت لا تزال متينة جميلة، وعبر الباب الزجاجي كان بالإمكان رؤية غرفة ذات أرضية خشبية؛ لا بد وأنها غرفة الاستقبال، ولم تكن تحوي شيئًا سوى بيانو قديم ولوحات ذات أطر واسعة مصنوعة من خشب الماهوجني. أما حدائق الزهور القديمة فلم يتبقَّ منها سوى نباتات عود الصليب والأجمات الصغيرة والتي قد رفعت رؤوسها البيضاء الناصعة الجميلة فوق العشب. امتد على جانبي الممشى شجر القيقب والدردار وقد عاق بعضها نمو الآخر. كانت الحديقة مكتظة بالأشجار، وبدا كما لو أن السير فيها أمر متعذر، ولكن هذا لم يكن إلا بالقرب من المنزل حيث انتصبت أشجار الحور والصنوبر والزيزفون العتيقة، وهي آخر ما نجا من الجادات القديمة، ولكن من خلفها كانت الحديقة قد تجردت مما فيها من أجل حصاد الحشيش، ولم يكن المكان رطبًا مليئًا بخيوط العناكب التي تعلق بالفم والعينين، وكان نسيم عليل يسري في المكان، وكلما أمعن المرء في الدخول كلما ازداد المكان رحابة، وتلوح في هذا المتسع أشجار الكرز الضخمة والخوخ والتفاح التي تشوهها الدعامات والفطريات الضارة، وكذلك أشجار إجاص ضخمة للغاية، حتى إن المرء يجد صعوبة في تصديق أنها أشجار إجاص فعلًا. كان بعض أصحاب المتاجر في مدينتنا قد أجَّروا هذا الجزء، وتولى أحد الفلاحين ضعاف العقل حمايته من السرقة ومن الزرازير، وكان يعيش في كوخ قائم بالمكان.

كانت الحديقة الآخذة في الضعف حتى لتتحول إلى مجرد مرج، تنحدر صوب النهر المليء بالعشب الأخضر والشجر، وكانت هناك بركة عميقة مليئة بالأسماك بالقرب من السد الصغير الموجود هناك، وكانت هناك طاحونة صغيرة ذات سطح مصنوع من القش تصدر ضجيجًا غاضبًا بينما تصدر الضفادع نقيقها الغاضب. أما المياه الصافية كالمرآة فكانت تظهر فيها بعض الدوامات بين الحين والآخر وترتجف زنابق المياه وقد أثارها السمك الضاج

بالحيوية. في هذه الناحية من النهر قامت قرية دوبتشينيا، وكانت البركة الساكنة العميقة تجذب المرء للنزول فيها واعدةً بالبرودة والهدوء. وها قد انتهى كل ذلك؛ البركة والطاحونة والضفاف الدافئة، ليصبح ملكًا للمهندس!

هكذا بدأت وظيفتي الجديدة. كنت أتلقى البرقيات وأرسلها، وأكتب مختلف التقارير وأنسخ نسخًا دقيقة من مذكرات المطالب والشكاوى والتقارير التي يبعث بها إلينا العمال والحرفيون غير المتعلمين، لكن طوال الجزء الغالب من وقت النهار لم أكن أفعل شيئًا، بل أذرع الغرفة جيئةً وذهوبًا في انتظار وصول البرقيات، أو أكلف الصبي بأن يظل في المكان، بينما أخرج إلى الحديقة وأتنزه حتى يأتيني الصبي ويبلغني أن ثمة قرعًا على آلة التلغراف. كنت أتناول الغداء عند السيدة تشيبراكوفا. نادرًا ما كانت تقدم اللحم، وكانت الأطباق دائمًا حافلة بالحليب، وفي أيام الصوم (الأربعاء والجمعة) كانت تقدم إلينا أطباقًا وردية اللون تُدعى أطباق أيام الصوم. كانت تشيبراكوفا تغمز لي دائمًا، فكان الأمر بمثابة عادة، لذا كنت أشعر في حضورها دائمًا بالحرج والضيق.

وإذ لم يكن هناك عملٌ في هذا المكان يكفي حتى رجلًا واحدًا، لم يكن تشيبراكوف يفعل شيئًا، بل ينام أو ينطلق ببندقيته إلى بركة الطاحونة ليصطاد البط. في الأمسيات كان يسكر في القرية أو المحطة، وقبل أن ينام كان ينظر في المرآة ويصيح: «أهلًا يا إيفان تشيبراكوف!».

كان وجهه يشحب بشدة عندما يثمل، ويفرك يديه ويضحك بصوت يشبه الصهيل: «هي هي هي!». كان يخلع ثيابه ويعدو في الحقول عاريًا، ويأكل الذباب، ويقول: إن مذاقه حامض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



--4

ذات يوم جاء المنزل بعد الغداء منقطع الأنفاس وقال:

- تعال. لقد أقبلت شقيقتك!

خرجت، فوجدت عند مدخل البيت الكبير عربة أجرة من البلدة. لقد وصلت شقيقتي وبصحبتها أنيوتا بلاجوفو ورجل يرتدي زيًّا عسكريًّا. عندما اقتربت عرفت هوية هذا الرجل. إنه شقيق أنيوتا: الطبيب العسكري. قال:

- لقد جئنا إليك في نزهة. هل يوافقك هذا؟

أرادت شقيقتي وأنيوتا أن تسألا عن أحوالي هنا، لكنهما صمتتا واكتفتا بالنظر إليَّ. صمتُّ أنا أيضًا. لقد أدركتا أن الوضع هنا لا يروق لي، فدمعت عينا شقيقتي، واحمر وجه أنيوتا بلاجوفو. ذهبنا إلى الحديقة. تقدمنا الطبيب وقال بابتهاج:

- آآه من جمال هذا الهواء يا أمنا المقدسة! آآه من جمال هذا الهواء!

من حيث المظهر الخارجي بدا أنه لا يزال طالبًا. كان يتحدث ويسير كطالب، وكانت عيناه الرماديتان تشعان بالحيوية والبساطة والصراحة كما هو الأمر مع طالب مجتهد. بدا إلى جانب شقيقته الطويلة الجميلة واهنًا نحيلًا. كانت لحيته نحيلة هي الأخرى، ونبرة صوته ضعيفة لكنها لطيفة. كان يخدم في إحدى الكتائب، ولقد وصل إلى أهله لتوه في عطلة، ويقول إنه سوف يرحل في الخريف إلى سان بطرسبرج ليتقدم إلى الامتحان الذي يسمح له بممارسة مهنة الطب. كانت لديه أيضًا أسرته الخاصة المكونة من زوجة وثلاثة أطفال، فقد تزوج في وقت مبكر للغاية عندما كان في الصف الثاني، ويُقال عنه في البلدة إنه غير سعيد مع أسرته وإنه لم يعد يعيش بالفعل مع زوجته.

تساءلت شقيقتي باضطراب:

- كم الساعة الآن؟ لا بد وأن نعود باكرًا، فقد سمح لي أبي بالمجيء لرؤية شقيقي على أن أعود قبل السادسة.

فتنهد الطبيب قائلًا:

- آآه من أبيك هذا!

أشعلت السماور. شربنا الشاي وقد جلسنا فوق بساط مددناه أمام شرفة المنزل الكبير، وقد جلس الطبيب على ركبتيه وشرب من فنجانه وهو يقول إنه يختبر الآن الهناء والنعيم. ثم جاء تشيبراكوف حاملًا المفتاح وفتح الباب الزجاجي فدخلنا جميعًا. كان المكان بالداخل معتمًا غامضًا، تفوح من جنباته

رائحة فطر عيش الغراب، وترددت أصداء خطواتنا بقوة وكأن هناك سردابًا أسفل الأرض. وقف الطبيب وأخذ يتلمس أصابع البيانو، لكنها استجابت بصوت ضعيف مرتعش أجش، لكن شجي. جرب أن يغني وأنشد أغنية ضاربًا بقدمه بحماسة حينما تكون هناك مساحة من الصمت في النوتة التي يعزفها. لم توطد شقيقتي عزمها على العودة، وأخذت تذرع الغرف قائلة:

- أنا سعيدة! أنا سعيدة جدًّا جدًّا!

كان صوتها مشوبًا بالدهشة، كأنها لا تستطيع تصديق أنها يمكنها أن تستشعر السعادة. كانت المرة الأولى في حياتي التي أراها فيها بهذه السعادة. لقد بدت أجمل فعلًا. لم يكن مظهر وجهها الجانبي جميلًا، فقد كان أنفها وفمهما ناتئين إلى الأمام قليلًا، وقد ارتسم على الوجه تعبير متجهم، لكنه كان ينعم بعينين داكنتين فاتنتين. كان وجهًا شاحبًا ذا لون لطيف جدًّا، وقد ارتسم عليه تعبير طيب حزين شديد التأثير، وعندما تتحدث كانت تبدو جميلة، بل فاتنة. كلانا يشبه والدتنا، من حيث الأكتاف العريضة والقوة والقدرة على الاحتمال، لكن شحوبها كان بسبب سوء صحتها. كانت كثيرًا ما تسعل، وأحيانًا ما كنت ألمح في وجهها هذا التعبير الذي يمكن أن يرتسم على وجوه أولئك المصابين بمرض خطير، لكنهم يخفون مرضهم لسبب ما. كان ابتهاجها يشي بشيء ما طفولي وساذج، وكأن تلك البهجة التي قمعتها التربية القاسية استيقظت فجأة الآن في الروح، ووجدت منفذًا لها.

ولكن عندما حل المساء وتوجب إعادة الخيل، صمتت شقيقتي وشحب وجهها وجلست داخل العربة كما يجلس المذنب. وحينما انصرفوا وتلاشى ضجيج العربة أدركت أن أنيوتا بلاجوفو لم تقل لي كلمة واحدة طوال تلك الفترة. قلت في نفسي: «إنها فتاة رائعة! فتاة رائعة!».

أقبل صوم القديس بطرس، وكنا نتناول كل يوم الطعام الذي نتناوله في فترات الصوم. وتحت وطأة البطالة وعدم الاستقرار، راودتني حالة من الإنهاك البدني وشعور بعدم الرضى عن النفس، وبدا أني لا أنتظر شيئًا سوى تلك الحالة المزاجية المناسبة التي تُمكِّنني من أن أترك كل ذلك.

ذات يوم قرابة المساء - وعندما كان ريدكا جالسًا في المنزل - دخل دولجيكوف المكان فجأة، وقد اسمر وجهه بشدة بفعل الشمس وعلاه الغبار. لقد قضى ثلاثة أيام في أرضه، ووصل الآن إلى دوبيتشنيا على متن زورق بخاري، وسار على قدميه من المحطة إلي ناحيتنا. أخذ يطوف حول أرضه مع الناظر في انتظار عربته التي كانت من المفترض أن تأتيه من البلدة، وأخذ يصدر الأوامر بصوت جهوري، ثم جلس عندنا طوال اليوم في بيتنا الملحق

بالمنزل الكبير، ووصلته بعض البرقيات، فأخذ يجيب عنها بنفسه. وقف ثلاثتنا وقفة عسكرية صامتة.

قال وهو يلقي نظرة على أحد السجلات:

- ما هذه الفوضى؟ سأنقل المكتب إلى المحطة بعد أسبوعين، ولست أدري ماذا سوف أفعل بكم أيها السادة!

قال تشيبراكوف:

- إني أبذل قصارى جهدي سعادتكم.

فقال المهندس وهو ينظر إليَّ:

- نعم، أنا أرى كيف تبذل قصارى جهدك! إنك لا تستطيع فعل شيء سوى تقاضي راتبك. أنت تعتمد على تأثير النفوذ كي تؤدي أعمالك على أسرع وأيسر ما يكون، لكني لا أبالي بهذا النفوذ لم يفعل أحد شيئًا من أجلي، وقبل أن يعهدوا إليَّ بهذا العمل اضطررت إلى العمل مزيتًا للآلات في بلجيكا.

وإلتفتَ إلى ريدكا قائلًا:

- وأنت يا بانتيلي، ماذا تفعل هنا؟ أتسكر معهما؟

لسبب ما كان يطلق على الضعفاء من الناس «بانتيلي»، وكان يحتقر مَن هم من أمثالي أنا وتشيبراكوف، ويدعونا في وجوهنا مباشرةً بالسكارى والبهائم والرعاع. بشكل عام كان شديد القسوة على المرؤوسين المساكين، وكان يُقدِّر عليهم الغرامات ويطردهم من العمل ببرود ودون أي إيضاح.

جاءت الجياد أخيرًا، وقد وعد عند انصرافه بأن يطردنا جميعًا في غضون أسبوعين، ونعت ناظر الأراضي بالأبله، ثم اتكأ في العربة وتوجه إلى البلدة.

قلت لراديكا:

- أندريه إيفانيتش! خذني للعمل لديك كعامل.

- حسنًا.

ومضينا معًا إلى البلدة. عندما ابتعدنا عن المحطة والمنزل سألته:

- أندريه إيفانيتش، لماذا أتيت إلى دوبيتشنيا؟

- السبب الأول هو أن رفاقي يعملون هنا على الخط الحديدي، والسبب الآخر أني ذهبت إلى امرأة الجنرال كي أسدد الفائدة المستحقة عليَّ. في العام

الماضي اقترضت منها خمسين روبلًا، أدفع عليها فائدة مقدارها روبل واحد شهريًّا.

توقف الدهَّان وقال لي:

- ميسايل ألكسيتش، يا ملاكنا، أنا أنظر إلى المسألة برمتها بهذه الطريقة: أي إنسان، سواء كان من النبلاء أم من العامة، يتقاضى أقل قدر من الربا فإنه يقوم بعمل شرير، ولا يمكن للحقيقة أن توجد داخل إنسان كهذا.

أغلق راديكا الواهن الشاحب العجوز عينيه وهز رأسه، وقال بلهجة فيلسوف:

- الحشرات تُهلك العشب، والصدأ يُهلك الحديد، والكذب يُهلك الروح. يا رب، ارحمنا نحن الخاطئين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



-5-

لم يكن ريدكا رجلًا عمليًّا، وكان يسيء تقدير الأمور. كان يقبل أعمالًا أكثر مما يستطيع القيام به، ويضطرب عند القيام بالحسابات ويتيه تمامًا، لذا كان يخسر دائمًا. كان يتولى أعمال الدهان، وتركيب الزجاج ولصق ورق الحائط، بل إنه أيضًا كان يتولى فرش الأسطح بالآجر. أذكر جيدًا أنه أخذ ذات مرة يبحث عن عمال من أجل عمل بسيط يختص بالأسطح دون جدوى. كان ماهرًا جدًّا في عمله، وأحيانًا ما كان يربح ما يقرب من عشرة روبلات يوميًّا، ولو لم تكن لديه هذه الرغبة في أن يكون صاحب عمل ويُطلق عليه: «مقاول» لربح يقينًا ثروة جيدة.

كان يتقاضى المبلغ المحدد لعمله، ثم يدفع لي أنا والرفاق أجورًا يومية تتراوح بين سبعين كوبيكًا حتى روبل يوميًّا. وطالما كان الطقس حارًّا وجافًّا كنا نقوم بالأعمال الخارجية؛ خاصةً دهان الأسطح. كنت في البداية أشعر بالنار في قدمي وكأني أسير فوق نيران موقد لأني لم أكن قد آلفت العمل بعد، وعندما ارتديت حذاءً ملبدًا اختنقت قدماي تمامًا. لكن ذلك كان في البداية فقط، ثم آلفت الأمر، وغدا كل شيء سهلًا للغاية. أعيش الآن وسط أناس يعتبر العمل بالنسبة إليهم أمر إلزاميًّا لا مهرب منه، وهم يعملون مثل الخيل المروضة، وعادة ما لا تكون لديهم أي فكرة عن قيمة العمل الأخلاقية، حتى إنهم غالبًا ما لا يستخدمون في حواراتهم كلمة «عمل». لقد شعرت وسطهم أنا أيضًا أني جواد، وتعاظم شعوري بحتمية العمل الذي أقوم به وصفته الإلزامية، وقد يسَّر ذلك من أمور حياتي وخلَّصها من كافة الشكوك في البداية كان كل شيء يثير اهتمامي، وبدا كل شيء جديدًا بالنسبة لي، وكأنني قد ولدت من جديد كان بإمكاني أن أنام على الأرض، وأن أسير حافيًا؛ الأمر الذي راقني بشدة. كان بإمكاني أيضًا أن أقف وسط البسطاء دون أن أضايق أحدًا، وعندما كان جواد من جياد العربات يسقط في الشارع، كان بإمكاني أن أهرع وأقدم يد العون لرفعه ثانيةً دون أن أخشى تلويث ثيابي. الأهم من كل ذلك أني كنت أعيش من عرق جبيني دون أن أكون عبئًا على أحد.

كان طلاء الأسطح، خاصةً عندما يكون بزيتنا وطلائنا، عملًا مربحًا جدًّا، لذا لم تكن هناك نظرة ازدراء إلى هذا العمل الخشن الرتيب، حتى من جانب العمال المهرة مثل ريدكا. كان يذرع السطوح مرتديًا سروالًا قصيرًا بساقين هزيلتين أرجوانيتي اللون، وكان يشبه طائر اللقلق، وكنت أسمع صوت لهاثه الشديد وهو يعمل بفرشاته، ويقول: - يا ويلنا، يا ويلنا نحن الخطاة!

كان يذرع السطح بخفة وكأنه يسير فوق الأرض. بغض النظر عن أنه كان يبدو شاحبًا مريضًا كما لو أنه قد أوشك على الموت، إلا أنه كان يتمتع برشاقة غير

عادية كأنه شاب صغير. كان يطلي قباب الكنائس دون أن يستعين بسقالات، بل يكتفي فقط بسلم وحبل، على الرغم من الخطورة الشديدة لأن يقف على مثل هذا الارتفاع الشاهق عن الأرض، وهو يعدل وسطه ويقول لسبب غير واضح: - الحشرات تُهلك العشب، والصدأ يُهلك الحديد، والكذب يُهلك الروح!

أو يفكر أحيانًا في شيء، ويجيب عن أفكاره هذه بصوت عالٍ:

- أيمكن أن يحدث كل ذلك؟ قد يحدث كل ذلك!

عندما كنت أعود من عملي إلى المنزل، كان جميع الجالسين على المقاعد الكائنة عند مداخل بيوتهم؛ أصحاب الدكاكين والصبية وأسيادهم، يلاحقونني بملاحظات ساخرة وخبيثة مختلفة، وكان ذلك في البداية يثير اضطرابي بشدة وبدا لي أمرًا شنيعًا. كنت أسمع أصواتهم أينما اتجهت قائلين: - أفضل من لا شيء! دهَّان! مغرة صفراء! وكان أكثر الناس إيذاءً لي هم تحديدًا الذين كانوا حتى وقت قريب أبسط الناس الذين يربحون خبز يومهم بالعمل الشاق. كنت أمر ذات يوم في شارع مليء بالدكاكين، وفجأة صب عليَّ صاحب دكان بيع أدوات حديدية ماءً وتظاهر أن الأمر قد حدث مصادفة، واندفع أحدهم نحوي حاملًا عصا. في مرة أخرى اعترض طريقي بائع سمك كهل أشيب وقال لي وهو يرمقني بنظرات غاضبة قائلًا: - إني لا أشعر بالأسف عليك أيها الأحمق! لكني آسف على أبيك!

أما معارفي فكانوا يرتبكون حينما يلقونني. بعضهم كان ينظر إليَّ نظرته إلى مهرج غريب، والبعض الآخر كان ينظر إليَّ نظرة تنم عن شعور بالأسف، أما الفريق الثالث منهم فكان لا يعرف كيف يتصرف عند لقائي. كان من الصعب عليَّ أن أفهم ذلك. ذات يوم إلتقيتُ أنيوتا بلاجوفو في أحد الأزقة القريبة من شارعنا: دفوريانسكي الكبير. كنت في طريقي إلى العمل، أحمل فرشتين ودلوًا مليئًا بالطلاء. ما إن تنبهت لي حتى احمرّ وجهها بشدة قالت لي بعصبية وخشونة وصوت مرتعش دون أن تمد يدها لي، والعبرات تترقرق في عينيها فجأة:

- أرجوك لا تنحني تحية لي في الشارع إن كنت تظن أن هذا ضروري فحسنًا... حسنًا، ولكن أرجوك لا تسر معي.

لم أكن بالفعل أقطن في شارع دفوريانسكي الكبير، ولكن في ضاحية ماكاريخ مع مربيتي كاربوفنا، وهي عجوز طيبة لكنها كئيبة، تشعر دومًا بأن شيئًا ما سيئًا سوف يحدث، وتخشى كل الأحلام بشكل عام، بل وتخشى من النحل والدبابير التي تدخل إلى غرفتها، وترى فيها نذيرًا سيئًا أما عن عملي

كعامل فكان في رأيها أمرًا لا يعد بأي خير، وكانت تقول بحزن وهي تهز رأسها:

- لقد أفسدت حياتك! لقد أفسدتها.

كان ابنها بالتبني بروكوفي يعيش معها في منزلها، وهو جزار ضخم الجثة، أخرق، لم يتجاوز الثلاثين من عمره، أحمر الشعر ذو شارب خشن. عندما كان يلتقيني في الردهة الداخلية كان يفسح لي الطريق باحترام في صمت، وإن كان ثملًا، يرفع أصابعه الخمسة على قبعته تحية لي. في المساء كان بإمكاني أن أسمع نحنحته وتنهده من خلف العارضة الخشبية الحاجبة وهو يتناول عشاءه، وكيف يرتشف كأسًا تلو الآخر. كان ينادي أمه بصوت خفيض: - ماما!

فتجيبه كاربوفنا التي كانت تحب ابنها بالتبني حبًّا غامرًا:

- ماذا تريد يا بني؟

- سأقدم لكِ يا أمي دلالة على محبتي لكِ. سوف أرعاكِ طوال سني شيخوختكِ في هذا العالم، وعندما تموتين سوف أدفنكِ على نفقتي. سألتزم بما قلته لكِ.

كنت أنهض من نومي كل يوم قبل شروق الشمس، وأنام مبكرًا. كنا نتناول طعامًا كثيرًا - نحن دهّاني البيوت - وننام قريري الأعين، وكل ما كنت أشكو منه هو أن قلبي يخفق بشدة في الليالي لسبب ما. لم أكن أتشاحن مع زملائي. صحيح أن طوال اليوم كان بالإمكان سماع السباب والدعاء اليائس بالشر مثل: «عسى أن يطفئ اللّه نور عينيك» أو «عسى أن تقضي عليك الكوليرا» دون توقف، لكننا كنا نعيش في ود. كان زملائي في العمل يظنون أني أنتمي لطائفة دينية ما ويطلقون بعض النكات اللطيفة عني، قائلين إن أبي نفسه قد طردني، ويقولون أيضًا إنهم هم أنفسهم نادرًا ما يذهبون إلى الكنيسة، وإن كثيرين منهم لم يجلسوا على مقعد الإعتراف منذ أكثر من عشرة أعوام. كانوا يبررون ذلك بقولهم إن الدهان بين الناس يشبه الغراب بين الطيور.

كانوا يحترمونني ويتعاملون معي بنوع من الإجلال، وكان من الواضح أنهم يكنون إعجابًا لإحجامي عن شرب الخمر والتدخين وسلوكي الهادئ الرزين. الأمر الوحيد الذي صدمهم على نحو بغيض هو عدم اشتراكي في سرقة الزيت معهم وعدم ذهابي إلى الزبائن لطلب إكرامية. في الحقيقة كانت سرقة الزيت والألوان بالنسبة للدهانين أمرًا مألوفًا جدًّا حتى إنهم لا يعتبرونه سرقة، ومن المدهش أن رجلًا شريفًا مثل ريدكا كان لا يتورع عن اختلاس قليل من الزيت الأبيض عند مغادرته العمل. حتى أولئك الشيوخ المحترمون

الذين لديهم بيوت خاصة بهم في ضاحية ماكاريخ لم يكونوا يتورعون عن طلب الإكراميات. كنت أشعر بالحزن والخجل عندما أرى الرفاق يذهبون معًا لتهنئة شخص ما تافه ببدء عمل ما أو إنهائه، كي ينالوا منه عشرة كوبيكات أو ما شابه، ويشكرونه في ذل.

كانوا يعاملون الزبائن كرجال الحاشية المتزلفين الماكرين، وكانت طريقتهم هذه تُذكرني تقريبًا في كل يوم بشخصية «بولونيوس» الشكسبيرية.

كان الزبون يقول ناظرًا إلى السماء:

- لا بد وأنها ستُمطر.

فيوافقه الدهانون قائلين:

- نعم، لا بد وأنها ستمطر لا محالة.

- لكني أظن أنها سحابة غير محملة بالمطر. لا بد أنها لن تمطر.

- يقينًا لن تمطر سعادتكم. لن تمطر.

ولكن في غياب الزبائن كانوا عادةً ما يتهكمون منهم، وعندما يرون مثلًا واحدًا منهم جالسًا في شرفته يقرأ جريدة ما كانوا يقولون: - يقرأ الجريدة، ومع ذلك ليس لديه ما يأكله.

لم أذهب لمنزل أهلي. كثيرًا ما كنت أعود من العمل إلى المنزل فأجد رسائلَ صغيرة من شقيقتي في انتظاري، وهي رسائل موجزة مضطربة كتبتها شقيقتي عن أبي. كانت تقول أحيانًا إنه بدا شارد الفكر على الغداء ولم يتناول شيئًا، أو أنه شعر بدوار، أو أنه مكث في غرفته طويلًا ولم يخرج. كانت هذه الرسائل تثير فيَّ الاضطراب، ولم أكن أتمكن حينها من النوم، حتى إني كثيرًا ما كنت أنطلق في الليل إلى منزلنا بشارع دفوريانسكي الكبير وأتطلع عبر النوافذ المظلمة محاولًا تبين ما إن كان كل شيء في الداخل يجري على نحو جيد أو لا. وفي أيام الآحاد كانت شقيقتي تزورني خلسةً بحجة أنها أتت لزيارة مربيتنا لا لزيارتي. وإن جاءتني اعترى وجهها الشحوب، وانهمرت الدموع من عينيها وانخرطت في البكاء. قالت: - إن أبانا لا يمكنه تحمل ذلك. إن حدث شيء له - لا سمح اللّه - سوف يعذبك ضميرك طوال العمر. إنه أمر مريع يا ميسايل، أليس كذلك؟ أتوسل إليك أن تُقوِّم سبيلك إكرامًا لاسم أمنا الراحلة.

أجبتها قائلًا:

- يا شقيقتي العزيزة، كيف يمكنني أن أُقوِّم طريقي إن كنت على قناعة أني أسلكه الآن بحسب ما يقتضيه ضميري. افهميني!

- أعرف أنك تسلك وفقًا لما يقتضيه عليه ضميرك، ولكن لعل بإمكانك أن تسلك على نحو آخر بحيث لا تُحزن أحدًا.

تنهدت العجوز من خلف الباب قائلةً:

- آآه أيها القديسون. لقد أفسدت حياتك! سوف تأتي المتاعب أيها العزيزان. سوف تأتي لا محالة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



6--

في أحد أيام الآحاد جاءني فجأة الطبيب بلاجوفو. كان يرتدي زيه العسكري فوق قميص حريري، وحذاءً عالي الساق مصقولًا. استهل حديثه وهو يصافحني بحرارة تشبه طريقة التلاميذ قائلًا:

- جئت لزيارتك. أسمع عنك كل يوم تقريبًا ونويت مرارًا أن آتي إليك لأتحدث معك حديثًا من القلب إلى القلب كما يقولون. الحياة في البلدة مملة بدرجة رهيبة، فليس بإمكانك أن تجد روحًا حية فعلًا، ولا يمكنك تبادل كلمة واحدة مع أحد.

وأكمل وهو يخلع زيه العسكري ليبقى بقميصه الحريري فقط:

- وحق العذراء الحرارة شديدة جدًّا. اسمح لي يا عزيزي أن أتحدث معك.

كنت أنا أيضًا أشعر بالملل وأردت منذ وقت طويل لقاء شخص آخر غير رفاقي الدهانين، لذا سررت فعلًا بقدومه. قال وهو يجلس على فراشي: - سأبدأ بالقول إني أكنّ لك ولطريقة حياتك احترامًا كبيرًا من صميم قلبي. إنهم لا يفهمونك في البلدة، وفي الحقيقة لا أحد يفهم هناك؛ لأنهم كما ترى خنازير فعلًا باستثناء عدد قليل جدًّا. لكني أدركت كنهك على الفور يوم قمنا بتلك النزهة معًا. إنك تتمتع بروح نبيلة. أنت إنسان شريف رفيع. إني أكنّ لك احترامًا ويشرفني أن أصافحك.

وأكمل بحماسة قائلًا:

- لا بد أنه لم يكن بإمكانك أن تغير نمط حياتك كلها بهذه الحدة إن لم تكن قد مررت بتجربة روحية معقدة، وكي تواصل الآن هذه الحياة وتستمر في هذا السبيل السامي، لا بد وأن هذا يجعلك تُنهك عقلك وقلبك كل يوم كي نبدأ حديثنا الآن قل لي، ألا تعتقد أنك لو استغليت قوة إرادتك وهذا الجهد الشديد في عمل آخر، ولنقل مثلًا في القيام بأبحاث علمية أو فنية عظيمة، لأصبحت حياتك أرحب وأعمق وأكثر إثمارًا من كافة النواحي؟

أخذنا نتحدث، وحينما تطرق الحديث إلى العمل البدني شرحت له هذه الفكرة وقلت: - حتى لا يستعبد الأقوياء الضعفاء، وحتى لا تعيش الأقلية عالة على الأغلبية وتأسرها وتمتص دماءها، علينا جميعًا دون استثناء، أقوياءً كنا أم ضعفاء، فقراء أم أثرياء، أن نشارك على قدم المساواة في الكفاح من أجل الحياة، وأن يعيل كل إنسان نفسه، وليس هناك في أيدينا وسيلة لتحقيق ذلك أفضل من العمل البدني العام عندما يكون إلزاميًّا للجميع.

- إذَنْ أنت تعتقد أنه يتوجب على الجميع الانخراط في العمل البدني دون استثناء. أليس كذلك؟

- نعم.

- ألا تعتقد أنه إن انخرط الجميع في النضال من أجل الحياة بما فيهم أفضل المفكرين، وأعظم العلماء، بحيث يعيل كل إنسان نفسه، فإننا سنهدر الوقت في كسر الحجر ودهان الأسطح، وسيحيق خطر حقيقي بعملية التقدم؟

- أين الخطورة؟ إن التقدم يكمن في أعمال المحبة وفي تنفيذ القانون الأخلاقي. إن لم يُستعبد أحد ولم يُظلم أحد فأي تقدم تريد أكثر من ذلك؟

وحينها استبد الغضب فجأة ببلاجوفو ونهض من مكانه قائلًا:

- ولكن اسمح لي! اسمح لي! إن انهمك حلزون في صدفته وفي تحقيق كماله الخاص به وتكاسل عن تنفيذ القانون الأخلاقي، فهل تسمي هذا تقدمًا؟

فقلت غاضبًا:

- ولماذا تطلق على ذلك: تكاسل في تنفيذ القانون الأخلاقي؟ إن لم تُكره من حولك على أن يطعمك ويكسوك وينقلك من مكان لآخر ويدافع عنك ضد أعدائك، ألا تعتقد حينها أن هذا يعتبر تقدُّمًا وسط حياة رازحة تحت أغلال العبودية؟ إني أرى أن هذا هو التقدم الحقيقي، ولعله هو التقدم الوحيد الممكن واللازم للإنسان.

- إن حدود التقدم الإنساني العالمي لا متناهية، ومن هنا يبدو لي الحديث عن التقدم «الممكن» المحدود بحاجاتنا أو آرائنا المؤقتة غريبًا، واعذرني على قول ذلك.

- إن كانت حدود التقدم لا متناهية كما تقول، فهذا يعني أن أهدافه غير واضحة، فإن عاش المرء دون أن يعرف شيئًا محددًا، فما هدفه إذَنْ؟

- وحتى إن كان الأمر كذلك، «عدم المعرفة» لا يدعو للملل كما تدعو معرفتك المزعومة. إني أرتقي سلمًا يُدعى «التقدم» أو «الحضارة» أو «الثقافة»، فأصعد وأصعد دون أن أدري إلى أين أنا ذاهب تحديدًا، ولكن الحقيقة أن الحياة لا تصبح جديرة بالعيش إلا بسبب هذا السلم الرائع. أما أنت فتعلم ما تعيش من أجله، مثل ألا تستعبد مجموعة من الناس مجموعة أخرى، ومن أجل أن يتناول الفنان ومن يسرق ألوانه من نفس الطعام. لكن هذا هو الجانب الحقير القاتم من الحياة والمتعلق بالطعام. ألا يبعث على الاشمئزاز أن يعيش المرء من أجل ذلك فقط؟ إن استعبدت بعض الحشرات بعضها الآخر، فعليها اللعنة، ودعها تقضي على بعضها البعض! لماذا يجب علينا أن

نشغل بالنا بها؟ إنها سوف تهلك وتتعفن مهما بذلت من أجل أن تحررها من العبودية. علينا أن نفكر في ذلك العصر الألفي ([9]) الذي ينتظر الإنسانية في المستقبل البعيد.

وجادلني بلاجوفو بحرارة، ولكن في الوقت ذاته كان في إمكاني أن ألاحظ أن فكرة أخرى كانت تثير الاضطراب في داخله. قال وهو ينظر في ساعته: - لا بد وأن شقيقتك لن تأتي. جاءت لزيارتنا بالأمس وقالت إنها سوف تزورك.

ثم واصل قائلًا:

- إنك لا تنفك عن ترديد: العبودية، العبودية، لكنها مسألة خاصة، ومثل هذه المسائل لا يمكن أن تحلها الإنسانية إلا بشكل تدريجي.

ثم دار الحديث عن تحقيق الأهداف بشكل تدريجي، فقلت:

- إن مسألة تحديد العمل الصالح من الطالح متروكة لكل إنسان ليحسمها بنفسه دون أن ينتظر الإنسانية حتى تحلها عن طريق التطور التدريجي. بالإضافة إلى ذلك، التدرج مسألة لها وجهان، فإلى جانب التطور التدريجي للأفكار الإنسانية هناك تطور تدريجي لأفكار من نوع آخر. على سبيل المثال اختفت القنانة، ولكن النظام الرأسمالي آخذ في النمو، وفي عصر الأفكار التحررية، كما هو الأمر تمامًا في عصر «باتو خان» ([10]) لا تزال الغالبية تطعم وتكسو وتدافع عن الأقلية، بينما تبقى هي نفسها جائعة عارية دون أن يحميها أحد. مثل هذا الوضع يمكنه أن يتواءم تمامًا مع أي نزعة أو تيار، وذلك لأن فن الاستعباد يتطور هو الآخر بشكل تدريجي. لقد توقفنا عن جلد الخدم في الاسطبلات، لكننا نُكسب العبودية أشكالًا جديدة لبقة على الأقل يمكننا أن نبررها في كل فرصة تسنح لنا ليست لدينا سوى أفكار وأفكار، ولكن لو كان في ميسورنا الآن في ختام القرن التاسع عشر أن نلقي بعبء العمل البدني ثقيل الوطأة على عاتق الطبقات العاملة لفعلنا ذلك دون شك، ومن ثم بحثنا بالطبع عن تبرير لفعلنا هذا قائلين: إن أهدر أفضل البشر والمفكرين وأعظم العلماء وقتهم في هذا النوع من العمل، فلا بد وأن يحيق بالتقدم خطر جسيم.

ولكن في تلك اللحظة وصلت شقيقتي. ارتبكت فور أن رأت الطبيب وأصابها القلق وأخذت تقول: «إن الوقت قد حان للعودة إلى بيت أبي».

قال بلاجوفو ضاغطًا بكلتا يديه على قلبه بلهجة مقنعة:

- كليوباترا ألكسيفنا. ماذا سوف يحيق بأبيكِ إن قضيتِ نحو نصف ساعة معي ومع أخيكِ؟

كان مؤثرًا، يعرف كيف ينقل عدوى حيويته للآخرين. فكرت شقيقتي لبرهة، ثم ضحكت واستولت عليها فجأة نوبة من المرح مثل تلك التي استولت عليها يوم أن قمنا بالنزهة. خرجنا إلى الحقول واستلقينا على العشب وواصلنا حديثنا ونظرنا إلى البلدة حيث كانت كافة النوافذ المواجهة لاتجاه الغرب تبدو ذهبية ساطعة لجنوح الشمس نحو الغروب.

بعد ذلك، كان بلاجوفو يأتي بصحبة شقيقتي في كل مرة تأتي فيها لزيارتي، وكان كل منهما يُحيِّي الآخر، وكأن لقاءهما عندي جاء بمحض المصادفة. كانت شقيقتي تستمع إلى نقاشي مع الطبيب، وفي تلك اللحظات كان يرتسم على وجهها تعبير رقيق ينم عن السرور والحماسة، ويشع بالفضول، وبدا لي أن عالمًا آخر كان ينفتح أمام عينيها تدريجيًّا؛ عالمًا لم تكن تراه من قبل ولا حتى في أحلامها، وتحاول الآن أن تسبر أغواره. عندما كانت تأتيني ولا يأتي الطبيب كانت تلزم الهدوء وتبدو سيماء الحزن على وجهها، بل إنها أحيانًا ما كانت تبكي وهي جالسة على فراشي لأسباب لا تتحدث عنها أبدًا.

في شهر أغسطس أمرنا ريدكا أن نعد الرحال للانتقال للعمل بالسكك الحديدية. قبل يومين من إبعادنا عن البلدة جاءني أبي. جلس بتمهل وأخذ ينظر إليَّ، وجفَّف وجهه الأحمر، ثم أخرج من جيبه صحيفة البلدة: «الرسول» وأخذ يقرأ أحد الأخبار بروية مشددًا على كل كلمة، وكان الخبر عن تعيين ابن مدير مصرف الدولة رئيسًا لأحد الدواوين الحكومية، وهو من عمري تقريبًا. ثم طوى الصحيفة وقال: - أما أنت فشحاذ صعلوك وغد. حتى أبناء الطبقة الوسطى والفلاحين ينالون الآن قسطًا من التعليم حتى ينعموا بمركز ما، أما أنت - سليل أسرة بولوزنيف التي تنحدر من أصل نبيل أرستقراطي - فتغرق نفسك في الوحل! لكني لم آتِ إلى هنا من أجل التحدث معك، فقد رفعت يدي عن أمرك (ونهض قائلًا بصوت مبحوح) لكني جئت لأعرف إلى أين ذهبت شقيقتك أيها الوغد؟ لقد غادرت المنزل بعد الغداء، وها قد حلت الثامنة ولم تعد بعد. لقد أصبحت تكثر من الخروج في الفترة الأخيرة دون أن تُعلمني، وأصبحت أقل احترامًا لي، وإني أرى في ذلك آثار تأثيرك الشرير عليها. أين هي؟

وكان يحمل في يده مظلة أعرفها جيدًا، فارتبكت وانكمشت على نفسي كطالب صغير في انتظار أن ينهال عليَّ أبي بالضرب، لكنه لاحظ نظرتي الموجهة إلى المظلة، فربما هذا ما جعله يكبح جماح نفسه.

- عِش كما يحلو لك. أنا أحرمك من بركتي.

تمتمت مربيتي من خلف الباب قائلةً:

- أيها القديسون الأطهار! يا لك من بائس تعيس. قلبي يُنذرني أن شرًّا سوف يقع!

عملت بالخط الحديدي، وهطلت الأمطار دون توقف طوال شهر أغسطس. وكان الجو رطبًا باردًا. لم يكن الفلاحون قد نقلوا الحنطة من الحقول، أما في المزارع الضخمة حيث تقوم الآلات بعملية الحصاد، فلم يجمعوا القمح في أكوام صغيرة، بل كدسوه أكداسًا. أذكر جيدًا كيف كانت تلك الأكداس سيئة الطالع تزداد سوادًا يومًا بعد آخر، وقد نمت حبوب القمح في سنابلها. كان العمل شاقًّا، فقد أفسد انهمار المطر كل ما استطعنا فعله. لم يسمحوا لنا بالعيش والنوم في مباني المحطة، بل أرسلونا إلى أكواخ قذرة رطبة التي عاش فيها عمال السكك الحديدية في الصيف، لكنني لم أكن أستطيع النوم ليلًا من فرط البرودة والحشرات الزاحفة على وجهي ويديَّ. عندما عملنا بالقرب من الجسور كان عمال السكك الحديدية الأفظاظ يأتوننا في الليل كي يضربوا الدهانين، وتحول الأمر ليصبح بمثابة نوع من الرياضة بالنسبة لنا.

كانوا يضربوننا ويسرقون فرشاتنا، وكي يغضبونا ويجذبونا للشجار، كانوا يفسدون عملنا. على سبيل المثال كانوا يشوهون القمرات باللون الأخضر، والأمر الذي زاد الطين بلة هو أن ريدكا لم يعد يدفع لنا أجورنا بانتظام. لقد تم إلزام أحد المقاولين بأعمال الدهان كلها، وعهد بها هذا المقاول لآخر، ومن ثم عهد بها الأخير لريدكا بعد أن اقتطع لنفسه عشرين بالمائة. لم يكن العمل في حد ذاته مربحًا، وزاد المطر من سوء الأمور، ضاع الوقت هباءً، ولم يكن في مقدورنا أن نواصل العمل، وكان ريدكا مكرهًا على دفع الأجور للرجال في آخر النهار. كاد الدهانون الجوعى أن يضربوا ريدكا، وأطلقوا عليه: المخادع، مصاص الدماء، يهوذا خائن المسيح، أما هذا البائس فكان يرفع يده إلى السماء في يأس، ويمضي إلى منزل السيدة تشيبراكوفا طلبًا للمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



--7

جاءنا الخريف ممطرًا موحلًا مظلمًا، وبدأ وقت البطالة، فكنت أجلس في المنزل طوال ثلاثة أيام عاطلًا عن العمل، أو أنفذ أعمالًا صغيرة ليست لها علاقة بأعمال الدهان، مثل تجهيز الأرض لتحصيبها (فرشها بالحصى) وكنت أحصل لقاء ذلك على عشرين كوبيكًا يوميًّا. أما الطبيب بلاجوفو فقد رحل إلى سان بطرسبرج، ولم تعد شقيقتي تزورني، ولازم ريدكا فراش منزله مريضًا في انتظار أن يأتيه الموت في أي يوم.

كانت حالتي المزاجية خريفية هي الأخرى، وربما السبب هو أني منذ أن أصبحت عاملًا لم أعد أرى في مدينتنا إلا عيوبها، فكل يوم تقريبًا كنت أكتشف أمورًا تفضي بي إلى مهاوي اليأس لقد اكتشفت تلك المجموعة من مواطنيَّ التي لم أكوِّن رأيًا فيها من قبل، أو تلك المجموعة التي بدت من مظهرها الخارجي محترمة تمامًا، لكن الآن بدا أفرادها وضيعين قاسيين لا يتورعون عن القيام بأقذر الأعمال. لقد خدعونا نحن البسطاء، وأجبرونا على أن ننتظر ساعات طويلة في المداخل الباردة أو في المطبخ وأهانونا وعاملونا بفظاظة شديدة. في الخريف، ألصقت ورق الجدران بغرفتي المطالعة بنادينا، ودفعوا لي سبعة كوبيكات على الغرفة، لكنهم أمروني أن أوقع على أني حصلت على اثني عشر كوبيكًا على الغرفة، وعندما رفضت، قال لي سيد جميل المظهر يرتدي نظارة ذهبية، لا بد وأنه أحد كبار أعضاء النادي:

- إن تفوهت بكلمة أخرى أيها الوغد فسوف أحطم وجهك.

وحينما همس الخادم في أذنه أني ابن المهندس المعماري بولوزنيف، أصابه الارتباك، واحمرَّ وجهه، لكنه سرعان ما تمالك نفسه ثانيةً وقال:

- فليأخذه الشيطان!

وكانوا في المتاجر يبيعوننا - نحن العمال - لحمًا فاسدًا وطحينًا عفنًا وشايًا رطبًا، وكانت الشرطة تدفعنا في الكنائس، وفي المستشفيات ينهبنا الممرضون والممرضات، وإن لم ندفع إليهم رشاوى بسبب فقرنا، كانوا ينتقمون بتقديم الطعام لنا في أطباق قذرة. في البريد، كان أصغر موظف يعتبر أن من حقه أن يعاملنا كالحيوانات، ويصيح فينا بفظاظة ووقاحة: «انتظر يا صاح! إلى أين تظن نفسك ذاهبًا؟». حتى كلاب المنازل لم تكن تعاملنا بود، وكانت تندفع نحونا بحقد شديد. ولكن أكثر ما صعقني في حياتي الجديدة كان غياب العدالة الكامل؛ الأمر الذي كانت العامة تعبر عنه قائلة: «لقد نسوا اللّه!». نادرًا ما كان يمر يوم واحد دون خداع، وكان التجار الذين يبيعوننا الزيت يغشوننا، وكذلك المقاولون والعمال والزبائن أنفسهم. ليس هناك داعٍ

لتوضيح استلاب حقوقنا، وأننا كنا نضطر في كل مرة أن نطلب أموالنا المستحقة وكأننا نطلب صدقة، ونقف في انتظار الحصول عليها عند الأبواب الخلفية وقبعاتنا في أيدينا.

كنت ألصق الورق على جدران إحدى الغرف المجاورة لغرف المطالعة بالنادي. وعند المساء عندما كنت أعد نفسي بالفعل للرحيل دخلت إلى الغرفة ابنة المهندس دولجيكوف وهي تمسك بكومة من الكتب. انحنيت محييًا إياها. قالت وقد تعرفت عليَّ وبسطت يدها لمصافحتي:

- آآه، مرحبًا. سعيدة جدًّا لرؤيتك.

ابتسمت ونظرت بفضول إلى ثيابي التي أرتديها في العمل، وإلى الدلو المليء بمعجون اللصق وورق الحائط الممدود على الأرض. كلانا ارتبك. قالت:

- اعذرني على تحديقي فيك بهذه الصورة. لقد حدثوني كثيرًا عنك، وخاصة الطبيب بلاجوفو. إنه ببساطة يحبك حبًّا جمًّا. تعرفت أيضًا إلى شقيقتك. كم هي لطيفة وعذبة! لكني لم أستطع إقناعها بأنه ليس هناك أي شيء مروع في نمط حياتك. على العكس من ذلك، لقد أصبحت الآن أكثر رجال البلدة إثارة للاهتمام.

ثم نظرت ثانيًا إلى الدلو في يدي المليء بالمعجون، وإلى ورق الحائط، وأكملت:

- لقد طلبت من الطبيب بلاجوفو أن يعرِّفني عليك، ولكن من الواضح أنه نسي أو أن الفرصة لم تسنح له. على أي حال لقد تعارفنا بالفعل، وإن استطعت أن تزورني في أي وقت دون تكلف، فسوف أكون مدينةً لك بالكثير. إني أتوق بشدة للتحدث معك. أنا إنسانة بسيطة.

هكذا قالت وهي تمد يدها إليَّ، وأكملت:

- أتمنى ألا تشعر بأي حرج معي. أبي ليس هنا. إنه في سان بطرسبرج.

ثم غادرت غرفة المطالعة، وتناهى لأذني حفيف فستانها، وعندما عدت إلى المنزل لم أستطع أن أنام إلا بعد مدة طويلة.

في تلك الأجواء الخريفية المقبضة، كانت نفس كريمة ما تبعث إليَّ أحيانًا بالشاي والليمون والدجاج المشوي والكعك لكي توقف نزيف فقري قليلًا دون ريب. كانت كاربوفنا تقول إن جنديًّا هو الذي يأتي بها دائمًا، لكنها لا تعرف من هو مرسلها. كان الجندي يسأل عن صحتي وما إن كنت أتناول طعام الغداء كل يوم، وما إن كانت لدي ثياب دافئة. عندما بدأت الثلوج في الانهمار، أُرسل

لي بنفس الطريقة في غيابي وشاح محبوك رقيق تنبعث منه روائح رقيقة عطرة، وحينها استطعت تخمين هوية جنيتي الطيبة. كان الوشاح يفوح برائحة زنابق الوادي، وهي المحببة لأنيوتا بلاجوفو.

مع حلول الشتاء تكدس العمل وأصبحت الحياة أكثر سرورًا. تعافى ريدكا ثانيةً وعملنا معًا في كنيسة المقابر، حيث كنا نعد حاجز الأيقونات كي يُطلى بطلاء ذهبي. كان عملًا نظيفًا هادئًا كما قيل لنا تمامًا، لذا كان الوقت يمر بسرعة دون أن نلاحظه. لم يكن هناك سباب أو ضحك ولا أحاديث صاخبة. كان المكان نفسه يفرض الصمت والسلوك اللائق، ويبعث بأفكار هادئة رصينة. عندما كنا ننهمك في العمل كنا نقف أو نجلس ساكنين وكأننا تماثيل. كان الصمت الرهيب يخيم على المكان، تمامًا مثل صمت المقابر، فإن سقطت أداة أو توهجت النيران داخل مصباح، كان الصوت يتردد بقوة وحدة، فنتلفت من حولنا. بعد صمت طويل كنا نسمع أزيزًا يشبه أزيز النحل، وكان يتهادى إلينا صوت مكظوم من باحة الكنيسة لطفل يردد الصلوات، وقد يكون هناك رسام منهمكٌ في رسم حمامة مطوقة بالنجوم على إحدى القباب، وينخرط في صفير هادئ، ويصمت قليلًا ثم يستدرك اللحن، أو حتى ريدكا هو الذي يقطع الصمت مستجيبًا لأفكاره فيقول: «نعم، كل شيء ممكن! كل شيء ممكن!»، أو يقرع من فوق رؤوسنا صوت جرس حزين بطيء، فيدرك الدهانون أنها جنازة رجل ثري دون ريب.

مرت الأيام وسط هذا الصمت وغسق الكنيسة، وفي الليالي الطويلة كنت ألعب البليارد أو أذهب إلى المسرح مرتديًّا سروالي الجديد المحبوك الذي اشتريته من مالي الخاص. بدأت العروض المسرحية والموسيقية فعلًا عند آل أجوجين، وأصبح ريدكا وحده من يتولى الديكورات. كان يحكي لي عن مضمون المسرحيات والعروض الصامتة التي تمكن من رؤيتها عند آل أجوجين، وكنت أستمع له بحسد، فقد شعرت بشوق شديد لحضور البروفات، لكني لم أعقد العزم على الذهاب إلى بيت آل أجوجين.

قبل عيد الميلاد بأسبوع وصل الطبيب بلاجوفو، وعدنا للجدال، وكنا نلعب البليارد في الأمسيات. أثناء اللعب، كان يخلع سترته ويفك أزرار قميصه حتى الصدر، وبشكل عام يحاول لسبب ما أن يتخذ أمامي مظهر فاسق لا أمل في إصلاحه. لم يكن يشرب الخمر كثيرًا، لكنه يضج في صخب، وكان يتميز بقدرته على الإجهاز على عشرين روبلًا في حانة رخيصة مثل حانة «فولجا».

عادت شقيقتي لزيارتي، وعاد كل منهم لاصطناع ملامح الدهشة عند لقائهما معًا عندي، ولكن وجهها المذنب كان يشي بالفرحة التي تكشف عن أن هذه اللقاءات لم تكن تحدث مصادفةً. ذات ليلة كنت ألعب البليارد مع الطبيب، فقال لي:

- اسمع، لماذا لا تذهب لزيارة الآنسة دولجيكوفا؟ أنت لا تعرف ماريا فيكتوروفنا، إنها ذكية فاتنة وبسيطة، وطيبة القلب.

حكيت له كيف استقبلني أبوها المهندس في الخريف، فضحك الطبيب قائلًا:

- هراء! ليس هناك أدنى شبه بين المهندس وابنته. لا ينبغي حقًّا يا عزيزي أن تسيء إليها. إعرج عليها في أي وقت. ما رأيك مثلًا أن نذهب إليها غدًا مساءً؟ وأقنعني فعلًا في المساء التالي ارتديت سروالي الجديد، وشعرت بالاضطراب وأنا ذاهب إليها تلك المرة لم يَبْدُ لي الخادم متغطرسًا شنيعًا كما لاح لي من قبل، ولا بدا لي الأثاث فاخرًا كما بدا لي في هذا الصباح حين جئت إلى المهندس طالبًا للعمل. كانت ماريا فيكتوروفنا في انتظاري، ورحبت بي بحرارة كما لو أننا نعرف بعضنا البعض منذ زمن طويل، وصافحتني بحرارة وود. كانت ترتدي فستانًا رماديًّا من الجوخ ذا أردان واسعة، وسوَّت شعرها بتسريحة كنا نطلق عليها في البلدة حينما ظهرت منذ عام واحد: «آذان الكلاب». كانت خصلات شعرها مسدلة للخلف خلف الأذنين، لذا بدا وجه ماريا فيكتوروفنا أعرض، وشابه وجه أبيها العريض للغاية، بحمرته واقترابه من ملامح وجه حوذي. كانت جميلة وأنيقة لكنها لم تَبْدُ شابةً صغيرةً، بل في الثلاثين من العمر، مع أنها في الحقيقة لم تكن تتجاوز الخامسة والعشرين.

قالت وهي تدعوني للجلوس:

- كم أنا ممتنة لصديقي الطبيب العزيز! لولاه لما أتيتني. أشعر بملل قاتل. لقد رحل أبي وتركني وحدي، ولا أعرف كيف يمكنني أن أقضي الوقت في هذه البلدة.

ثم أخذت تسألني أين أعمل الآن، وكم أتقاضى وأين أعيش.

- ألا تنفق شيئًا سوى ما تربحه من عملك؟

- نعم.

تنهدت قائلة:

- يا لك من إنسان سعيد! يبدو لي أن كل الشرور في حياتنا تنبع في الأساس من العطالة والسأم والخواء الروحي، ولا مهرب من كل ذلك عندما يألف المرء العيش عالة على الآخرين لا تظن أني أتباهى إني أقول لك بصدق: ليس من الممتع أو المبهج أن يعيش المرء ثريًّا لقد قيل: اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم» ([11]) لذا ليس ثمة مال عادل ولا يمكن أن يكون.

ورمقت الأثاث بنظرة كئيبة باردة وكأنها تريد أن تحصي عدد القطع، وواصلت حديثها:

- للترف والراحة قوة سحرية. إنهما يستدرجان حتى أقوى الناس إرادةً. منذ زمن كنت أعيش أنا وأبي حياة بسيطة غير مترفة، أما الآن فأنت ترى بنفسك.

وقالت وهي تهز كتفيها:

- نحن ننفق الآن ما يقرب من عشرين ألف روبلًا في العام! هنا في هذه البلدة الصغيرة!

فقلت لها:

- يعتقد المرء أن الترف والراحة هما النتاج الرئيس الذي لا مفر منه لرأس المال والتعليم الراقي. يبدو لي أن الحياة المترفة يمكنها أن تتواءم مع أي نوع من أنواع العمل، حتى أشقها وأقذرها. أبوك غني لكنه - على حد قوله - اضطر للعمل ميكانيكيًّا ومزيتًا.

ابتسمت وهزت رأسها بارتياب وقالت:

- أحيانًا ما يتناول أبي الخبز مغموسًا في الكفاس ([12]). إنها نزوته وتسليته.

في تلك اللحظة رن الجرس فنهضت من مكانها، وقالت:

- لا بد على الأغنياء والمثقفين أن يعملوا مثل الجميع، وإن كانت هناك رفاهية فلتكن للجميع. لا يجب أن تكون هناك أي امتيازات. ولكن كفى تفلسفًا. احك لي شيئًا يسر القلب. احك لي عن الدهانين. كيف هم؟ هل هم ظرفاء؟

وجاء الطبيب. بدأت أحكي عن الدهانين، لكني لم آلف ذلك فحكيت بتردد بعض الشيء كما يتحدث عالم اثنوجرافي بجدية ورخاوة. حكى الطبيب أيضًا بعض الطرف من حياة الحرفيين. ترنح وبكى وجلس على ركبتيه، بل إن الأمر وصل إلى تقليده لأحد السكارى حتى انطرح على الأرض. كان تمثيله جيدًا، فانفجرت ماريكا فيكتروفنا في الضحك حتى تساقطت دموعها من فرط الضحك وهي تنظر إليه. ثم عزف على البيانو وغنى بصوت عذب، بينما وقفت ماريكا فيكتوروفنا بالقرب منه وراحت تملي عليه ما يغنيه وتصحح له أحيانًا عندما يخطئ.

تساءلت:

- لقد سمعت أنكِ أيضًا تغنين. صحيح ذلك؟

فصاح الطبيب في ذعر:

- أتقول: أنكِ أيضًا تغنين؟ إنها مغنية ساحرة وممثلة، وتقول لها سمعت أنكِ تغنين؟

-

أجابت عن سؤالي قائلة:

- لقد درست بجد في إحدى الفترات، لكني الآن قد توقفت.

وبينما كانت تجلس على مقعد واطئ حكت لنا عن حياتها في سان بطرسبرج وحاكت لنا بعض المغنيين المشهورين مقلدة أصواتهم وطريقة أدائهم، ورسمت في ألبوم الطبيب ثم رسمت لي صورة، لكنها كانت في الواقع رسمة سيئة، ولكن كلا الرسمتين كانتا تشبهان بعضهما البعض. ضحكت ووثبت فرحًا وكانت تلوي قسمات وجهها بلطف، وقد لاءمها ذلك أكثر من الحديث عن مال الظلم وبدا لي أن حديثها معي منذ برهة عن الثروة والترف لم يكن جديًّا، بل مجرد محاكاة لشخص ما. لقد كانت ممثلة كوميدية من الطراز الأول. لقد قارنتها في ذهني بمن أعرفهن من سيدات، بل وقارنتها بأنيوتا بلاجوفو الفاتنة الرفيعة، ووجدت أنها تفوق الجميع حتى الأخيرة. كان الفارق رهيبًا مثل الفارق بين وردة جميلة لقت أفضل رعاية ممكنة وزهرة برية.

تناول ثلاثتنا العشاء معًا. شرب الطبيب وماريا فيكتوروفنا نبيذًا أحمرَ وشمبانيا وقهوة ممزوجة بالكونياك. قرعا كؤوسهما معًا وشربا نخب الصداقة والعقل والتقدم والحرية، ولم يثملا، بل احمرت وجوهما فقط، وكانا يقهقهان كثيرًا دون سبب حتى تنهمر دموعهما. وحتى لا أبدو مملًّا شربت أنا أيضًا من النبيذ الأحمر.

قالت دولجنيكوفا:

- أولئك من وهبوا طبائع ثرية يعرفون كيف يعيشون ويشقون طريقهم، أم العاديون - مثلي أنا مثلًا - فلا يعرفون شيئًا ولا يستطيعون القيام بشيء بأنفسهم، ولا يتبقى لهم شيء ليفعلوه سوى أن يلاحظوا حركة اجتماعية ما عميقة ويسبحون في تيارها.

سأل الطبيب:

- كيف يمكن للمرء أن يلاحظ شيئًا غير موجود؟

- لا، قد يظن المرء ذلك لأنه لا يراه.

- حقًّا؟ الحركات الاجتماعية ليست إلا شيئًا قد اختلقه الأدب. ليست لدينا أي منها.

وبدأ الجدال. قال الطبيب بصوت عالٍ:

- ليست لدينا حركات اجتماعية عميقة ولم يكن لدينا شيء يشبه ذلك من قبل. لا نهاية لما يخلقه هذا الأدب الجديد! لقد ابتكر لنا أيضًا عمالًا مثقفين في

الريف إن بحث المرء في قُرانا فأفضل ما سيجده أحمقَ يرتدي معطفًا أو سترة سوداء ويرتكب أربعة أخطاء في تهجِّي كلمة مكونة من ثلاثة أحرف فقط! لم تبدأ الحياة الثقافية بعد في بلادنا. لا تزال الوحشية والفظاظة الكاملة والتفاهة كما كان الأمر منذ خمسين عامًا مضت. لقد مرت علينا بعض الاتجاهات وخضعنا لبعض التأثيرات، لكنها جميعًا سطحية تافهة تستهدف مصالح عقيمة دنيئة، ومن غير الممكن أن يجد فيها المرء شيئًا ذا بال. إن كان يبدو لكِ أنكِ لاحظتِ وجود حركة اجتماعية عميقة، وأنكِ إن اتبعتِها فستكرسين حياتكِ لمهام عصرية مثل تحرير الحشرات من العبودية أو الامتناع عن اللحوم، فأنا أهنئكِ يا سيدتي. علينا أن ندرس وندرس، وعلينا أن نتمهل فيما يتعلق بالحركات الاجتماعية العميقة، فلم ننضج كفاية لمثل هذه الحركات، وإن أردتِ الحقيقة، فنحن لا نعرف عنها شيئًا.

قالت ماريا فيكتوروفنا:

- أنت لا تعرف عنها شيئًا، أما أنا فأعرف. يا إلهي! كم أنت مزعج اليوم!

- ما علينا فعله هو أن ندرس وندرس، ونحاول جمع أكبر قدر ممكن من المعارف؛ لأن الحركات الاجتماعية الحقيقية موجودة هناك حيث المعرفة، وسعادة الإنسانية في المستقبل تكمن في المعرفة. فلنشرب نخب العلم!

قالت ماريا فيكتوروفنا بعد برهة من الصمت والتفكير:

- هناك أمر واحد لا يرقى إليه الشك؛ علينا أن نعيد تنظيم حياتنا على نحو مختلف، فحياتنا حتى هذه اللحظة لا تستحق أن تُعاش. كفانا كلام عنها.

حين غادرنا منزلها دقت ساعة الكاتدرائية معلنة حلول الثانية بعد منتصف الليل. سألني الطبيب:

- هل راقت لك؟ أليست فاتنة؟

تناولنا الغداء عند ماريا فيكتوروفنا في اليوم الأول من عيد الميلاد، وطوال بقية أيام العيد كنا نذهب إليها كل يوم تقريبًا. لم يكن عندها أحد، وكانت محقة عندما قالت إنها ليس لديها أي معارف في البلدة سواي أنا والطبيب كنا نقضي معظم الوقت في الحديث، وأحيانًا ما كان الطبيب يجلب كتابًا أو مجلة ويقرأ لنا جهرًا، في الحقيقة كان أول رجل مثقف ألتقيه في حياتي لا يمكنني أن أحكم ما إن كان يعرف الكثير أم لا، لكنه كان دائمًا ما يكشف عن معرفته، كما لو أنه يريد أن يُشرك فيها الآخرين، كان عندما يتحدث عن شيء ما يتعلق بالطب لا يشبه أحدًا من أطباء بلدتنا، بل يترك في نفسي انطباعًا جديدًا خاصًّا، وكان يبدو لي أنه إن أراد لأصبح عالمًا حقيقيًّا. ربما كان هو الإنسان الوحيد في تلك الفترة الذي لديه تأثير حقيقي عليَّ، فبعد اتصالي به وقراءة

الكتب التي يعطيني إياها بدأت أشعر تدريجيًّا بالحاجة إلى المعرفة التي يمكنها أن تضفي على عملي الكئيب قيمة. بدا لي أيضًا أن من الغريب أني لم أعرف قبلًا على سبيل المثال أن العالم يتألف من ستين عنصرًا بسيطًا، وأني لم أكن أعرف ماهية الزيت ولا الطلاء وأنه كان بالإمكان أن أواصل حياتي دون أن أعرف ذلك. لقد جعلتني علاقتي بالطبيب أرتقي أخلاقيًّا. كنت أجادله كثيرًا، وبالرغم من أني عادة ما كنت أظل ثابتًا على رأيي، لكنني بفضله بدأت تدريجيًّا ألاحظ أن كل شيء لم يكن واضحًا كفاية بالنسبة لي، وحاولت جاهدًا أن أصيغ معتقدات محددة بداخلي، بحيث تصبح متطلبات الضمير محددة ولا تضم أي شيء غامض. مع ذلك، رغم أن هذا الإنسان كان الأفضل والأرفع ثقافةً في البلدة كلها، لكنه كان لا يزال بعيدًا عن الكمال. ففي أخلاقه، وعادته في تحويل كل حوار إلى نوع من الجدال، وفي صوته المحبب، وحتى في لطفه كان يكمن شيء ما فظ مثلما هو الأمر مع الدارس الأكاديمي، وعندما كان يخلع سترته ويظل بقميصه الحريري، أو حين كان يلقي بالبقشيش للخادم في الحانة، كنت أقول لنفسي: إن الثقافة أمر حسن، لكن الروح التترية ما زالت تختمر في نفسه.

مع حلول عيد الغطاس رحل ثانية إلى سان بطرسبرج. رحل صباحًا، وبعد الغداء جاءتني شقيقتي. جلست واجمة في صمت دون أن تخلع معطفها وقبعتها، وبدا وجهها شديد الشحوب وظل نظرها مثبتًا في اتجاه واحد. كانت ترتعد من الصقيع، وكان من الواضح أنها تُعاني بشدة.

قلت لها:

- لا بد وأنك أُصبتِ بالبرد.

اغرورقت عيناها بالدموع. نهضت من مكانها، ومضت إلى كاربوفنا دون أن تقل لي كلمة واحدة وكأني قد أسأت لها. بعدها ببرهة سمعتها تقول بلهجة توبيخ مرير:

- يا مربيتي! لماذا أعيش حتى اليوم؟ لأي غرض؟ قولي لي، ألم أُضيِّع أيام شبابي عبثًا؟ ألم أبدد أفضل أعوام عمري دون أن أعرف شيئًا سوى ضبط الحسابات وصب الشاي وعد الكوبيكات واستقبال الضيوف والاعتقاد أن ليس ما هو أهم من ذلك في العالم. يا مربيتي! افهميني! إن نفسي مليئة بالأشواق البشرية، وإني أريد أن أحيا، بينما قاموا بتحويلي إلى مدبرة منزل. إنه أمر مريع! مريع!

وألقت بمفاتيحها نحو الباب، فسقطت على أرض غرفتي مصدرة رنين. لقد كانت مفاتيح نضد المائدة وخزانة المطبخ والقبو وصندوق الشاي. إنها نفس المفاتيح التي كانت أمي تحملها ذات يوم.

قالت المربية فزعة:

- آآه أيها القديسون الأطهار في السماء!

عرجت عليَّ شقيقتي قبل أن تغادر كي تأخذ المفاتيح وقالت:

- اعذرني، فهناك شيء غريب يعتمل بداخلي في الآونة الأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



-8-

بعد أن عدت ذات مساء من عند ماريا فيكتوروفنا في وقت متأخر، وجدت في غرفتي شرطيًّا شابًّا يرتدي زيًّا عسكريًّا جديدًا. كان جالسًا إلى طاولتي يتصفح في كتاب. قال ناهضًا من جلسته متمطعًا:

- إنها المرة الثالثة التي آتي إليك فيها. إن المحافظ يأمرك أن تمثل أمامه غدًا. في التاسعة صباحًا. لا بد وأن تأتي.

وأخذ توقيعي على ذلك إلزامًا لي بتنفيذ أمر سعادته، ثم انصرف. كان لزيارة الشرطي في هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولدعوة المحافظ المفاجئة لي وقع شديد الوطأة على نفسي. لقد بقي في نفسي منذ زمن الطفولة المبكرة وحتى الآن خوف من رجال الدرك والشرطة وموظفي المحافظ، والآن يعصف بي القلق وكأني قد ارتكبت ذنبًا ما حقًّا. لم أستطع أن أنام. وكذلك عصف القلق بمربيتي وبروكوفي ولم يستطيعا أن يناما. كانت مربيتي تعاني أيضًا من ألم في أذنها، حتى إنها كانت أحيانًا ما تبكي من فرط الألم عندما أدرك بروكوفي أني لا أزال مستيقظًا دخل إلى غرفتي بحذر حاملًا المصباح وجلس إلى الطاولة قال بعد تفكير:

- لا بد وأن تشرب قليلًا من براندي الفلفل، فإن شرب المرء قليلًا في هذا العالم لن يصيبه أذى. لو أن ماما صبت قليلًا منه في أذنها لعاد عليها ذلك بأعظم نفع.

في الساعة الثالثة ذهب إلى المسلخ طلبًا للحم وإذ كنت أعلم أني لن أستطيع النوم حتى الصباح، وقررت أن أذهب معه كي أبدد الوقت حتى يحين الموعد في التاسعة. مشينا على ضوء المصباح، وبصحبتنا صبيه نيكولكا البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، وجهه ملطخ ببقع زرقاء من أثر الصقيع، وتبدو ملامحه كملامح قاطع طريق. كان الغلام يشق طريقه من خلفنا على مزلجة، يحث الجواد على الإسراع بصوت مبحوح.

قال لي بروكوفي العزيز:

- لا بد وأنهم سيعاقبونك عند المحافظ. هناك قواعد خاصة بالحكام، وأخرى خاصة بكبار رجال الدين وثالثة خاصة بالموظفين ورابعة خاصة بالأطباء، فلكل طبقة قواعدها، لكنك لم تحفظ قواعد طبقتك، ويقينًا لن يسمحوا لك بذلك.

كان المسلخ قائمًا خلف المقابر، ولم أكن قد رأيته من قبل إلا من على مبعدة. كان يتأسس من ثلاثة عنابر قاتمة كئيبة يحيط بها سياج رمادي، فلا تهب الريح من هذه الناحية في أيام الصيف الحارة، حتى تفوح رائحة نتنة خانقة. والآن بينما أدخل إلى الفناء لم أرَ العنابر. مررت بمجموعة من الخيول

والمزالج، بعضها فارغ والبعض الآخر محمل بالفعل بحمولات من اللحوم. كان الناس يطوفون هناك حاملين مصابيحهم، ويطلقون سبابًا فاحشًا. هكذا فعل بروكوفي وغلامه أيضًا، فكان المكان كله يضج بدندنة بذيئة من السباب، وكذلك بالسعال وصهيل الخيل.

فاحت رائحة الذبائح والروث، واختلط الثلج بالطين، وبدا لي أني أسير وسط برك من الدماء.

بعد أن ملأنا المزلجة باللحم توجهنا إلى جزارة بروكوفي بالسوق. لاحت أنوار الصباح، وخرج الطهاة بسلالهم والنسوة العجائز بمعاطفهن. أخذ بروكوفي يطلق سبابًا فظيعًا وهو ممسكًا بالساطور بيده، مرتديًا مئزرته البيضاء الملطخة بالدماء، ويرسم إشارة الصليب عند الكنيسة ويصيح مدويًا في السوق بأكمله مؤكدًا أنه يبيع اللحم بسعر التكلفة، بل إنه يخسر. كان يغش في الوزن ولا يعيد ما يتبقى من مال للمشتري، ولاحظ الطهاة ذلك لكنهم لم يحتجوا إثر صيحاته، بل اكتفوا بأن يطلقوا عليه: «الجلاد». كان يرفع ساطوره وينهال به بقوة بطريقة مسرحية، وفي كل مرة يصيح «إيييه»، وترتسم على وجهه ملامح ضارية، فيدب الذعر في نفسي لئلا يطيح برأس أحد أو ذراعه حقًّا.

قضيت فترة النهار كلها في جزارة بروكوفي، وفي النهاية عندما مضيت إلى المحافظ كانت رائحة اللحم والدماء تفوح من معطفي. كانت حالتي النفسية تشبه امرأً يمسك رمحًا ومضى تنفيذًا لأمر ما للقاء دب. ما زلت أذكر ذلك السلم الطويل، وذلك البساط المخطط، وذلك الموظف الشاب الذي كان يرتدي سترة رسمية ذات أزرار لامعة، وقد أشار لي في صمت إلى الباب وهرع إلى المحافظ ليبلغه بمجيئي. دلفت إلى ردهة فاخرة لكنها باردة وتفتقر إلى الذوق، خاصة تلك المرايا العالية الضيقة التي كانت تجرح النظر، والموجودة في الفسحات بين الجدران، وكذلك تلك الستائر الصفراء الساطعة التي تغطي النوافذ، وكان بإمكان المرء أن يدرك أن الحكام قد تبدلوا ولكن الأثاث بقي كما هو. أشار لي الموظف الشاب ثانيةً بكلتا يديه إلى الباب، فتوجهت إلى طاولة خضراء ضخمة كان يقف عندها جنرال يزين صدره بوسام القديس فلاديمير.

استهل حديثه ممسكًا في يده بخطاب ما وقد فتح فمه على آخره ليكشف عن شكل دائرة يشبه الحرف «o» قائلًا:

- لقد استدعيتك يا سيد بولوزنيف كي أعلمك بالآتي. أبوك المبجل توجه إلى كبير النبلاء بطلب شفهي وتحريري باستدعائك؛ لأنك تسلك سلوكًا يتنافى مع سلوكيات طبقتك النبيلة التي لك الشرف أن تنتمي إليها. صاحب السعادة

ألكسندر بافلوفيتش يرى أن سلوكك يشكل نموذجًا سيئًا، وهو محق في ذلك، وأن الاكتفاء بمحاولة الإقناع من جانبه لن يجدي، لذا وجب التدخل الجدِّيّ من قِبَل جهة رسمية، وقد وجَّه إليَّ هذه الرسالة التي تتضمن آراءه فيك وهي ما أشاركك إياها.

قال ذلك بهدوء واحترام وقد وقف منتصب القامة كما لو أني رئيسه ونظر إليَّ نظرة غير قاسية بتاتًا. بدا وجهه مترهلًا شائخًا مليئًا بالتجاعيد، ولاحت الجيوب تحت عينيه، وكان شعره مصبوغًا، وبشكل عام لم يكن مظهره الخارجي يكشف عن عمره، هل هو في الأربعين من العمر أم في الستين؟

أكمل حديثه قائلًا:

- آمل أن تقدر لباقة صاحب السعادة ألكسندر بافلوفيتش الذي توجه لي بشكل غير رسمي. أنا لا أحدثك هنا بطريقة رسمية من موقعي كمحافظ، بل بوصفي رجلًا أُقدِّر أباك أعظم التقدير. لذا أطلب منك إما أن تغير من نهجك وتعود لأداء المهام التي تليق بمكانتك الاجتماعية، وإما أن تكف عن ضرب هذا المثال السيئ فتنتقل إلى مكان آخر حيث لا يعرفك الناس وتعمل هناك بما تريد، وإما سأضطر لاتخاذ إجراءات قاسية.

صمت لنصف دقيقة تقريبًا وأخذ ينظر إليَّ فاغر الفم، ثم سألني:

- هل أنت نباتي؟

- لا يا صاحب السعادة. أنا أتناول اللحوم.

ثم جلس وجذب إليه ورقة ما، فانحنيت له بالتحية وانصرفت.

كان وقت الغداء قد حان تقريبًا فلم أمضِ إلى العمل. توجهت إلى البيت لأنام، لكني لم أستطع النوم بسبب شعور كريه مقيت جثم على صدري ولازمني بسبب ذهابي للمسلخ وحديثي بعدها مع المحافظ، حتى إذ أقبل المساء توجهت مضطربًا كئيب القلب إلى ماريا فيكتوروفنا. حكيت لها عن زيارتي للمحافظ، وأخذت تحدق فيَّ بذهول وكأنها لا تصدق ما أقوله، ثم انفجرت في الضحك المدوي فجأة بمرح وحيوية بطريقة لا يستطيع القيام بها إلا الطيبون المرحون.

- آآه لو حكى المرء هذا في سان بطرسبرج!

هكذا قالت وهي تكاد تسقط من فرط الضحك، فاستندت إلى الطاولة وهي تكرر:

- آآه لو حكى المرء هذا في سان بطرسبرج!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

9--

أصبحنا نلتقي بكثرة، مرة أو اثنتين في اليوم. كانت تأتي كل يوم تقريبًا إلى المقابر، وتقضي الوقت في انتظاري في قراءة ما نُقِش على الصلبان وحجارة المقابر، وأحيانًا كانت تدخل الكنيسة وتقف بالقرب مني وتراقبني بينما أعمل. كان الصمت وعمل الرسامين والمذهبين الساذج وتأملات ريدكا وعدم اختلاف مظهري عن بقية العمال في شيئًا، وعملي مثلهم مرتديًا نفس الصدرية وحديثهم لي دون تكلف أمرًا جديدًا تمامًا عليها، وحركِ مشاعرها بشدة. ذات مرة ناداني أحد الرسامين في حضورها، وكان منهمكًا في رسم حمامة على السقف وقال لي:

- ميسايل، ناولني الدهان الأبيض!

فناولته إياه، وعندما هبطت من فوق السقالة الرطبة، نظرت إليَّ واغرورقت عيناها بالدموع، وابتسمت قائلة:

- آآه! كم أنت عزيز عليَّ!

منذ زمن الطفولة بقي في ذاكرتي هذا المشهد، عندما طار ببغاء أخضر من قفصه، كان أحد الأثرياء قد أحضره، وكيف ظل هذا الطائر الجميل يطوف البلدة لشهر كامل بتكاسل، ويطير من حديقة لأخرى وحيدًا شريدًا. ذكرتني ماريا فيكتوروفنا بهذا الطائر. قالت لي ضاحكة:

- لست أعرف مكانًا أقصده الآن سوى المقابر! لقد سئمت من المدينة إلى درجة مفزعة. الناس عند آل أجوجين يقرؤون ويغنون ويلثغون، لكني في الفترة الأخيرة لم أعد أتحمل كل ذلك. شقيقتك شخصية غير اجتماعية، أما الآنسة بلاجوفو فتكرهني لسبب ما، وبالنسبة للمسرح فأنا لا أحبه. فإلى أين يمكنني أن أمضي؟

حين كنت أزورها، كانت رائحة الدهان والقار تفوح مني، والبقع تلطخ يدي، كان ذلك يروقها. لقد أرادت أيضًا أن أزورها بثياب العمل العادية، لكن تلك الثياب كانت تجعلني أشعر بالخجل حينما أجلس في ردهة الاستقبال، لذا كنت دائمًا ما أرتدي سروالي الجديد عند زيارتها، ولم يكن هذا يروقها.

قالت لي ذات يوم:

- اعترف أنك لم تستشعر الراحة كاملًا بعد في وظيفتك الجديدة. ثياب العمل تبعث فيك الضيق، ولا تشعر أنك على طبيعتك فيها. أخبرني، أليس مبعث ذلك هو أنك ليست لديك ثقة كافية فيما تفعله وأنك لا تشعر بالرضى؟ إن نوع

العمل الذي اخترته تحديدًا؛ ألا وهو الدهان، لا يبعث فيك السرور والرضى. أليس كذلك؟

هكذا تساءلت ضاحكة، ثم أضافت:

- أنا أعلم أن الدهان يجعل الأشياء تبدو أجمل وأمتن، لكن هذه الأشياء تتعلق بسكان المدن والأثرياء، وهي في نهاية الأمر جزء أصيل من الترف. لقد قلت أنت بنفسك ذات مرة: إن على كل إنسان أن يكسب خبزه من عرق جبينه، بينما أنت تكسب المال لا الخبز. لماذا لا تلتزم بما تقوله حرفيًّا؟ لا بد وأن نحصل على الخبز، أي أنه يتوجب على المرء أن يحرث ويطحن ويحصد ويدرس الحنطة أو يفعل شيئًا من هذا القبيل يتعلق بالزراعة بشكل مباشر مثل العناية بالأبقار أو عزق الأرض أو بناء الأكواخ.

وفتحت خزانة جميلة بجانب الطاولة، وقالت:

- أقول لك كل هذا لأني أريد أن أطلعك على سري. هذه هي مكتبتي الزراعية. لديَّ هنا حقل وبستان وحديقة وساحة بهائم ومنحل. أنا أقرأ عن كل ذلك بنهم حتى إني حفظت عن ظهر قلب كل نظريات هذه العلوم حتى أدق التفاصيل. إن حلمي ورغبتي الأثيرة أن أمضي إلى أرضنا في دوبيتشنيا حينما يحل شهر مارس. المكان هناك مدهش وفاتن! أليس كذلك؟ سوف أقضي العام الأول هناك في فحص المكان والتعود عليه، وفي العام التالي سوف أعمل بنفسي عملًا على أتم ما يكون، باذلة كل الجهد. لقد وعدني أبي بأن يمنحني الضيعة هناك، وسوف أعمل فيها ما يحلو لي.

احمرّ وجهها واغرورقت عيناها بالدموع وضحكت وقد أخذت تحلم كيف ستعيش في دوبيتشنيا، وكم ستكون الحياة ممتعة هناك. كنت أحسدها. كان شهر مارس قد أصبح على الأبواب بالفعل، والأيام تقترب أكثر فأكثر، وكانت المياه تتساقط من فوق الأسطح في النهارات المشمسة، وفاح عبير الربيع، وتاقت نفسي للحياة في الريف.

حين قالت: إنها ستنتقل للعيش في دوبيتشنيا، علمت أني سأبقى وحيدًا في المدينة، وشعرت بالحسد من خزانة كتبها وعملها المتعلق بالزراعة. لم أكن أعرف شيئًا عن الزراعة ولا أحبها، وأردت أن أقول لها إن العمل في الأرض هو نشاط عبودي، لكني تذكرت أن أبي قال ذات مرة شيئًا من هذا القبيل، فصمتُّ.

حان موعد الصوم الكبير، وعاد المهندس فيكتور إيفانيتش من سان بطرسبرج، وكنت قد نسيت أمره. وصل فجأة دون أن يرسل برقية تفيد بموعد وصوله. حين ذهبت إلى منزله في المساء مثلما تعودت، وجدته يذرع

الردهة ذهابًا وإيابًا، وقد بدا أصغر من عمره بعشرة أعوام وكان يروي قصة ما، بينما ابنته راكعة على ركبتيها تخرج من الحقيبة علبًا وزجاجات وكتبًا وتسلمها جميعًا إلى الخادم بافل. عندما رأيت المهندس تراجعت بشكل عفوي خطوة إلى الخلف، فمد لي يديه الاثنتين وابتسم كاشفًا عن أسنانه البيضاء القوية التي تشبه أسنان حوذي قائلًا:

- ها هو! ها هو! أنا سعيد برؤياك يا حضرة الدهَّان! لقد حكت لي ماشا ([13]) كل شيء. لقد كانت تنشد بسجاياك، وإني أفهم كل هذا وأقرُّ به!

وأكمل وهو يمسك بذراعي:

- أن يكون المرء عاملًا محترمًا أشرف وأذكى من إفساد ورقة حكومية ويرتدي قبعة رسمية ذات شريط فوق رأسه. أنا نفسي قد عملت في بلجيكا بهاتين اليدين، وصرفت من عمري عامين في العمل كميكانيكي.

كان يرتدي سترة قصيرة وحذاءً منزليًّا، وكانت مشيته تشي بإصابته بالنقرس فهو يتمايل ويفرك يديه. دندن لحنًا ما، وهمهم بسرور لعودته أخيرًا لمنزله وتمتعه بحمَّامه الرشَّاش الأثير.

قال لي على العشاء:

- ليس ثمة خلاف، ليس ثمة خلاف. أنت رجل لطيف ورقيق، ولكن لسبب ما أيها السيد ما إن تقبل على العمل اليدني أو تعمل من أجل إنقاذ الفلاحين، حتى ينتهي بك الأمر لأن تصبح منشقًّا عن جماعتك. ألست منشقًّا؟ إنك لا تشرب الفودكا. أي معنى لهذا سوى أنك منشق؟

وكي أرضيه شربت بعض الفودكا، وكذلك شيئًا من النبيذ. تناولنا جبنًا ونقانق ومعجنات وخيارًا مخللًا وكل أنواع المقبلات التي جلبها المهندس معه، وكذلك نبيذًا وصل من الخارج أثناء غيابه. كان النبيذ فاخرًا، ولسبب ما كان المهندس يحصل على النبيذ والسجائر من الخارج دون أن يدفع ضرائب جمركية، وكان البعض يرسل له الكافيار والسمك المجفف مجانًا. كما أنه لم يكن يدفع إيجار منزله؛ لأن المالك كان يمد الخط الحديدي بالكيروسين، وبشكل عام ترك فيَّ هو وابنته انطباعًا بأن أفضل ما في هذا العالم كان تحت تصرفهما، وأنه يُقدَّم إليهما بالمجان.

واصلت زيارتي لهما، ولكن من دون تلك الرغبة السابقة. كان وجود المهندس يضايقني، وكنت أشعر أني مقيد في وجوده. لم أكن أحتمل نظراته الصافية الساذجة، وكانت أفكاره تعذبني وتبدو لي منفرة، وهكذا كان شعوري أيضًا عندما أتذكر أني كنت أعمل تحت إمرة هذا الرجل البدين أحمر الوجه حتى وقت قريب، وأنه كان قاسيًا للغاية في معاملتي صحيح أنه طوَّق خصري

بطريقة ودية وربت على كتفي بلطف وأثنى على نمط حياتي، لكني كنت أشعر أنه لا يزال يحتقرني كما السابق، ويحتملني إرضاءً لابنته لا غير، لذا لم أعد قادرًا على الضحك والحديث كما أريد، ولم أعد اجتماعيًّا، وأصبحت أتوقع أن يطلق عليَّ في أي لحظة «بانتيلي» كما يفعل مع خادمه بافيل. كم ثار كبريائي كرجل ريفي وعامل بسيط! لقد أصبحت أنا الدهَّان البروليتاري أقصد أحد منازل الأغنياء الغرباء عني كل يوم، والذين كانت البلدة كلها تنظر إليهم نظرتها إلى أجانب غرباء، وأصبحت أشرب كل يوم نبيذًا فاخرًا وأتناول طعامًا باهظًا، وهو الأمر الذي لم يرتضه ضميري. في طريقي إلى منزلهما كنت أتجنب المارة وأعبس، كما لو أني منشق فعلًا. أما عند مغادرتي لمنزل المهندس وعودتي للمنزل فكنت أستشعر الخجل من امتلاء جسدي.

الأهم من ذلك كله أني خشيت أن أضل طريقي. سواء كنت أسير في الشارع أو أعمل أو أتحدث مع بعض الرفاق، كنت أفكر طوال الوقت في أمر واحد؛ ألا وهو الذهاب مساءً لماريا فيكتوروفنا، وأنخرط في تخيل صوتها وضحكتها ومشيتها. وعندما كنت أستعد لزيارتها كنت أستغرق وقتًا طويلًا أمام مرآة مربيتي المتقوسة، وأربط عقدة العنق. كان سروالي الصوفي يبدو لي منفِّرًا إلى أقصى حد، وكنت أعاني أشد المعاناة، وفي الوقت ذاته أحتقر نفسي على كل هذه التفاهة. وعندما كانت تحدثني من الغرفة الأخرى لتخبرني أنها لم ترتدي ثيابها بعد وتطلب مني الانتظار، كنت أنصت السمع إليها وهي ترتدي ثيابها، وكان هذا يثير فيَّ اضطرابًا شديدًا، وكنت أشعر كما لو أن الأرض تنهار تحت قدميَّ. وكنت إذا لمحت امرأة في الشارع - ولو على مبعدة - سرعان ما كنت أقارنها بها، وكان يبدو لي حينها أن كافة نساء وفتيات بلدتنا مبتذلات إذا ما وُضعن في مقارنة معها، يرتدين ثيابًا خرقاء، ولا يمكنهن السلوك على وجه حسن. وكانت هذه المقارنات تثير فيَّ شعورًا بالفخر، فأقول لنفسي: ماريا فيكتوروفنا أفضل منهن جميعًا! وفي الليالي كنت أراها معها في أحلامي.

وذات يوم، تناولنا على العشاء مع المهندس سرطانًا بحريًّا كاملًا. وحين كنت في طريقي عائدًا بعدها إلى منزلي تذكرت كيف دعاني المهندس مرتين على مائدة العشاء: «يا عزيزي»، فقلت في نفسي: إنهم يعاملونني بلطف شديد في هذا المنزل كما يعامل المرء كلبًا عجوزًا بائسًا طرده صاحبه، وإنهم يتسلون بي حتى إذا دبَّ الملل في نفوسهم طردوني كالكلب. بدأت أشعر بالخزي والألم؛ الألم الشديد حد البكاء، وكأنهما أهاناني، ونظرت إلى السماء ونذرت أن أضع حدًّا لكل ذلك.

في اليوم التالي لم أذهب لمنزل آل دولجيكوف. في ساعة متأخرة من الليل، عندما كان الظلام حالكًا والمطر يتساقط، أخذت أتسكع في شارع دفوريانسكي الكبير، وأتطلع إلى النوافذ. كان آل أجوجين قد ناموا بالفعل،

ولاح وهج الشموع في نافذة واحدة فقط من النوافذ الثلاث، وكانت نافذة غرفة العجوز أجوجينا التي أشعلت ثلاث شموع متخيلة أنها بذلك تناضل ضد الخرافة. أما نوافذ منزلنا فكانت مظلمة، وعلى العكس من ذلك في منزل آل دولجيكوف، كان النور يلوح من نوافذ المنزل، ولكن لم يكن بالإمكان أن يتبين شيئًا عبر الأزهار والستائر.

أخذت أتمشَّى في الشارع، وقد بللت أمطار شهر مارس الباردة ثيابي تمامًا. سمعت أبي عائدًا من النادي. طرق الباب، وفي غضون دقيقة لاح الضوء عند النافذة، ورأيت شقيقتي، وقد أسرعت لتفتح الباب حاملة المصباح في يد، وباليد الأخرى تسوي شعرها الكثيف. بعدها أخذ أبي يذرع غرفة الاستقبال جيئةً وذهوبًا، متحدثًا عن أمر ما، فاركًا يديه، بينما شقيقتي جالسة على المقعد ساكنة تمامًا، مستغرقة في التفكير في أمر ما غير مصغية لحديثه.

ولكنهما غادرا الردهة، وانطفأ الضوء في المكان... نظرت إلى منزل المهندس وكان الظلام يخيم عليه. في قلب الظلام وتحت الأمطار، شعرت أني وحيد إلى درجة مفزعة، وقد أصبحتُ فريسة لأهواء القدر، وشعرت بتفاهة أعمالي ورغباتي وكل ما فكرت فيه أو قلته قياسًا إلى وحدتي ومعاناتي الحالية وما ينتظرني منها في المستقبل. واأسفاه! إن أفعال وكلمات البشر ليست عظيمة بقدر معاناتهم. ودون أن أدرك بوضوح ما أفعله وجدت نفسي أهرع إلى جرس منزل آل دولجيكوف وأكسره ثم أركض في الشارع كالصبي، شاعرًا بالخوف، قائلًا في نفسي: إنهما سيخرجان إلى الشارع الآن وسيكشفان أمري. عندما توقفت كي ألتقط أنفاسي لم يكن بإمكاني أن أسمع شيئًا سوى صوت بعيد لحارس ما يقرع على قطعة من الحديد.

طوال أسبوع لم أذهب لزيارة آل دولجيكوف. بعت سروالي الصوفي، ولم يكن ثمة عمل في الدهان، وعانيت ثانيةً من آلام الجوع، وكنت أربح من عشرة لعشرين كوبيكًا في اليوم من أي عمل شاق كريه يتوفر لي. فيما كنت أخوض في الوحل البارد الذي وصل حتى ركبتي، منهك الصدر، حاولت أن أخنق ذكرياتي وأن أنتقم من نفسي على كل أنواع الجبن والمحفوظات الفاخرة التي كنت أتناولها في منزل المهندس، وبالرغم من كل ذلك كنت لا أكاد أستلقي على الفراش جائعًا ومبتلًّا حتى تبدأ مخيلتي الآثمة في تصوير صور مغوية فاتنة، وكنت أعترف لنفسي في ذهول أني أعشقها، ثم أغرق في نوم ثقيل عميق شاعرًا أن هذا العمل الشاق قد زاد جسدي قوة وشبابًا.

ذات مساء انهمرت الثلوج من دون مناسبة وهبت ريح الشمال، وكأن الشتاء قد أقبل من جديد. عند عودتي من العمل في هذا المساء وجدت ماريا

فيكتوروفنا في غرفتي. كانت جالسة دون أن تخلع معطفها أو قفازاتها. سألتني رافعة عينيها الذكيتين الصافيتين نحوي:

- لماذا لا تزورني؟

شعرت بارتباك شديد من فرط السرور، فوقفت أمامها متصلبًا كما كنت أقف أمام أبي عندما ينوي ضربي. نظرت إلى وجهي، ولاح في عينيها أنها كانت تفهم سبب ارتباكي.

كررت سؤالها:

- لماذا لا تزورني؟ إن كنت لا تريد أن تزورني، فإني كما أرى آتيك بنفسي.

ثم نهضت واقتربت مني، وقالت وعيناها قد اغرورقتا بالدموع:

- لا تهجرني. أنا وحيدة! وحيدة تمامًا!

وبكت وقالت وهي تغطي وجهها بقفازيها:

- أنا وحيدة! حياتي صعبة، صعبة جدًّا وليس لديَّ أحد في هذا العالم بأكمله سواك. لا تهجرني!

وابتسمت بينما تبحث عن منديل تجفف به دمعها. صمتنا لبرهة من الوقت ثم احتضنتها وقبَّلتها، خادشًا وجنتي بدبوس قبعتها حتى سال الدم.

ثم أخذنا نتحدث كما يتحدث أصدقاء مقربون منذ زمن بعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



-10-

بعد يومين أرسلتني إلى دوبيتشنيا، وكنت شديد الفرحة بذلك. عندما ذهبت للمحطة وجلست في عربة القطار وجدت نفسي أضحك دون سبب، فنظر الناس إليَّ وقد اعتقدوا أني ثمل.

تساقطت الثلوج، وكان الصباح يشهد موجة من الصقيع، وقد أصبحت الطرق داكنة اللون، والغربان تحوم حولها تنعب.

في البداية اعتزمت تهيئة مسكننا أنا وماشا في البيت المجاور لبيت السيدة تشيبراكوفا، ولكن تبين أن الحمام والبط كانا يعيشان فيه منذ زمن طويل، ولم يكن بالإمكان تنظيف المكان من فضلاتهما من غير تدمير الكثير من الأعشاش. لذا لم يكن هناك مفر من العيش في غرف غير مريحة من المنزل الكبير؛ تلك الغرف المزودة بحجب تحجب عنها الشمس. كان الفلاحون يطلقون على هذا البيت «الدار الكبير». كان يتألف من أكثر من عشرين غرفة، ولم يكن فيه من أثاث سوى بيانو ومقعد أطفال صغير ذي ذراعين في العلية، وإن أتت ماشا بكل ما لديها من أثاث لما استطعنا أن نمحو انطباع الخلاء والبرودة اللتين يشعر بهما المرء هنا. اخترت ثلاث غرف صغيرة تطل نوافذها على الحديقة، وأخذت أعمل منذ الصباح على إصلاحها، فأركب ألواحًا جديدة، وألصق ورق الجدران، وأسد الشقوق والثقوب الموجودة في الأرض. كان العمل سهلًا يسيرًا. كنت أهرع كذلك لألقي نظرة على النهر وأرى هل الثلج موجودٌ أم ذاب، وكنت أتخيل أن الزرازير تطير أمامي. أما في الليل فكنت أستغرق في التفكير في ماشا بفرحة لا يمكن التعبير عنها، وكنت أستمع بحبور إلى جلبة الفئران وصوت الريح الذي يقرع فوق السقف، وبدا لي كما لو أن شبحًا كهلًا كان يسعل في العلية.

كان الثلج كثيفًا، وقد تساقط قدر كبير منه في نهاية مارس، لكنه ذاب بسرعة، كأن ذلك قد حدث بفعل ساحر، واندفعت فيضانات المياه بصخب، فما إن جاء شهر أبريل يطرق الأبواب، حتى كانت الزرازير تضج والفراشات الصفراء تطير في الحدائق. كان الجو ساحرًا. كنت أذهب كل يوم قبيل المساء إلى البلدة للقاء ماشا، وكم كان من الممتع جدًّا أن أسير حافي القدمين على الطريق الآخذ في الجفاف تدريجيًّا ولا يزال غضًّا! كنت أجلس في منتصف الطريق لأتطلع إلى البلدة دون أن أجرؤ على الاقتراب منها. كان مرأى البلدة يثير فيَّ الاضطراب. كنت أنخرط في التفكير متسائلًا: كيف سيستقبلني معارفي بعد أن يعرفوا عن حبي؟ ماذا سيقول أبي؟ وكانت هناك فكرة معينة تبعث فيَّ الاضطراب؛ ألا وهي أن حياتي أصبحت أكثر تعقيدًا، وأني قد فقدت تمامًا القدرة على إصلاحها، وأنها كانت تحملني كالمنطاد إلى

المجهول. لم أعد أفكر كيف سأكسب خبزي وكيف سأعيش، لكني أستغرق في التفكير في أمر لم يتضح بعد لي.

كانت ماشا تأتي في عربة، فكنت أجلس بجانبها ونمضي معًا إلى دوبيتشنيا وشعور بالبهجة والحرية يملأ قلبينا. أو كنت أنتظرها حتى غروب الشمس، ثم أعود للمنزل غير شاعر بالرضى، حزينًا متسائلًا لماذا لم تأتِ ماشا، وعندما أصل إلى الباب الرئيس أو الحديقة كنت أجد شخصًا لطيفًا لم أتوقع رؤيته. إنها هي! ويتبين لي أنها جاءت بالقطار، ثم جاءت من المحطة إلى هنا سيرًا على الأقدام. كم كنت حينها أشعر بالبهجة! كانت تبدو في فستانها الصوفي البسيط ووشاحها ومظلتها المتواضعة البسيطة المشدودة، وحذائها طول الساق الأجنبي غالي الثمن، وكأنها ممثلة موهوبة تلعب دور عاملة فقيرة. كنا ننظر إلى منزلنا ونقرر أين ستكون غرفنا، وأين نجعل الممر والبستان والمنحل. كان لدينا بالفعل دجاج وبط وإوز نحبها جميعًا لأنها لنا. كان لدينا بالفعل شوفان لنزرعه وبرسيم وحشيش تيموثي وحنطة سوداء وبذور خضراء، وكنا في كل مرة ننظر إلى كل ذلك ونتناقش مطولًا عن الغلال التي سنحصدها. كان كل شيء تقوله لي ماشا يبدو لي شديد الذكاء والروعة. كانت هذه أسعد فترات حياتي على الإطلاق.

وسرعان ما انقضى أسبوع القديس توما، فعقد قراننا في كنيسة أبراشيتنا بقرية كوريلوفكا على مبعدة ثلاثة فرست من دوبيتشنيا. كانت ماشا ترغب في أن يتم كل شيء على نحو بسيط، وكان العرابون من الفلاحين كما أرادت، ورتل أحد الشمامسة، وعدنا من الكنيسة في عربة صغيرة قادتها ماشا بنفسها. لم يكن لدينا ضيوف من البلدة سوى شقيقتي كليوباترا، وكانت ماشا قد أرسلت إليها الدعوة قبل الزفاف بثلاثة أيام. ارتدت شقيقتي فستانًا أبيض وقفازًا. أثناء صلاة الإكليل بكت بهدوء من فرط الانفعال والفرحة، وكانت ملامح وجهها أمومية تنضح بطيبة فائقة. كانت ثملة من شعورها بسعادتنا، وكانت تبتسم وكأنها تستنشق عبير عذب، وعندما كنت أنظر إليها أثناء صلاة الإكليل أدركت أنه ما من شيء في العالم لديها يسمو عن الحب؛ الحب الأرضي، وأنها تحلم به سرًّا وبخجل وبرغبة متقدة موصولة. احتضنت ماشا وقبَّلتها دون أن تدري كيف يمكنها أن تعبر عن بهجتها، وقالت لها عني:

- إنه طيب القلب! طيب جدًّا!

وقبل أن ترحل عنا، ارتدت ثيابها العادية، واصطحبتني إلى الحديقة كي تحدثني على انفراد. قالت:

- أبونا شديد الحزن لأنك لم تدعوه. لا بد وأن تطلب بركته. لكن في الحقيقة هو مسرور جدًّا، ويقول إن هذا الزواج سوف يرفعك في أعين الناس جميعًا،

وإنك ستصبح أكثر جدية في الحياة بتأثير من ماريا فيكتوروفنا. لم نعد نتحدث في الليالي الآن عن شيء سواك، حتى إنه بالأمس قال: «ولدنا ميسايل»، وقد أسعدني ذلك. أعتقد أنه كان يفكر في أمر ما، ويبدو أنه يريد أن يضرب لك الآن مثلًا في سماحة القلب ويكون المبادر في الحديث إليك عن الصلح من الجائز جدًّا أن تجده قد أتى لزيارتك في غضون أيام ورشمت علامة الصليب فوقي عدة مرات بسرعة، وقالت:

- فليكن الرب معك ولتهنأ بالسعادة. أنيوتا بلاجوفو فتاة ذكية جدًّا، وهي تتحدث عن زواجك قائلة إن اللّه قد ابتلاك بمحنة جديدة. وماذا إذَنْ؟ إن الحياة الأسرية لا تحفل فقط بالسعادة، بل والمعاناة أيضًا، فالأمر يستحيل ألا يكون كذلك.

رافقناها في طريق عودتها أنا وماشا وسرنا حوالي ثلاثة فرست، وفي طريق عودتنا سرنا في هدوء وصمت وكأننا نستريح. أمسكت ماشا بيدي، وغمرت الفرحة قلبي حتى إني لم أشعر بأي رغبة في الحديث عن الحب، فقد أصبحنا بعد الزواج أكثر قربًا واتصالًا من بعضنا البعض، وكان يبدو لنا أنه لم يعد بإمكان شيء أن يُفرِّق بيننا.

قالت ماشا:

- شقيقتك إنسانة محببة جدًّا. ولكن يبدو أنها قد تعذبت كثيرًا. لا بد وأن أباك إنسان مريع.

فأخذت أحكي لها كيف أنشأنا أبي أنا وشقيقتي، وكيف قضينا طفولة مريعة غبية. وعندما عرفت مني أن أبي ضربني منذ فترة غير بعيدة، ارتجف جسدها واحتضنتني قائلة:

- أرجوك لا تحك لي المزيد. هذا أمر مريع.

ولم تفارقني بعد ذلك. عشنا في غرف المنزل الكبير الثلاث، وكنا في الليل نُحكم غلق الباب المؤدي إلى الجزء الخالي من المنزل، وكأن أحدًا يعيش هناك لا نعرفه ونخشاه. كنت أستيقظ مبكرًا مع حلول الفجر وأنخرط في عمل ما. كنت أصلح العربات وأشق ممرات في الحديقة وأعزق من أجل الزهور، وأدهن سطح المنزل.

عندما حان موعد بذر الشوفان حاولت حرث الأرض ثانيةً وتشجيرها وبذر البذور، وكنت أقوم بذلك بإخلاص مجاريًا العامل لدينا في عمله. أنهكت نفسي بشدة، وبفعل المطر والريح الباردة الشديدة إلتهب وجهي وساقايَ طويلًا، وفي تلك الليالي كنت أحلم بحراثة الأرض. ولكن العمل بالأرض لم يستهوني. لم أكن أفهم جيدًا في الأمور المتعلقة بالزراعة، ولا حتى أحبها. لعل سبب

ذلك يعود إلى أن أسلافي لم يكونوا من الفلاحين، وأن الدم الذي يسري في عروقي هو دم مديني خالص. كنت أحب الطبيعة بلطف، وأحب الحقول والمروج والبساتين، لكن الفلاح الذي يعزق الأرض بفأسه ويستحث جواده البائس، بأسمال بالية مبتلة، بعنق ممدود، كان بالنسبة لي تعبيرًا عن القوة الفظة الخشنة البشعة، وكلما كنت أرى حركات الفلاح الخرقاء كنت أفكر على نحو لا إرادي في الحياة الأسطورية التي عاشها الناس في العصور السحيقة قبل اكتشاف النار. كان الثور الضاري الذي يسير مع جماعة الفلاحين والجياد المندفعة صوب القرية، يثيران في نفسي الخوف، وكل شيء ضخم قوي غاضب، سواء كان كبشًا بقرنيه أو ذكر إوز أو كلب حراسة كان يبدو لي تعبيرًا عن القوة الفظة الضارية. كانت هذه الحالة تشتد بشكل خاص عندما تسوء حالة الطقس، وعندما تحوم السحب الثقيلة فوق الأرض المحروثة القاتمة. فوق كل ذلك، كنت إذا ما ذهبت لحرث الأرض أو بذرها، يقف اثنان أو ثلاثة من الناس يراقبون كيف أعمل، ولم أكن حينها أشعر أن هذا العمل مفروضٌ عليَّ، بل كان يبدو لي أني أستمتع به، كنت أُفضل أن أقوم بعمل ما في الفناء، ولم يكن شيء يروق لي أكثر من دهان السطح كنت أمضي في الحديقة والمرج إلى الطاحونة كانت مؤجرة لحساب فلاح من كوريلوفكا يُدعى ستيبان، وهو فلاح جميل أسمر ذو لحية سوداء تبدو عليه ملامح القوة الشديدة. لم يكن يحب العمل بالطاحونة، ويعتبره عملًا كئيبًا غير مربح، ولم يعش بالطاحونة إلا لسبب وحيد؛ ألا وهو عدم رغبته في العيش بمنزله. كان يعمل بصناعة السراج، وتحيطه دائمًا رائحة قطران وجلد عذبة. لم يكن محبًّا للكلام. كان خاملًا لا يتحرك من مكانه، يدندن دائمًا: «تيرالام تيرلام» جالسًا على ضفة النهر أو على العتبة. أحيانًا ما كانت تأتيه زوجته وحماته من كوريلوفكا، وكلتاهما بيضاء البشرة ممتلئة قصيرة القامة، وكانتا تنحنيان أمامه وتخاطبانه بشكل رسمي متكلف. أما هو فلم يكن يجيب بشيء على انحنائهما له، ويظل جالسًا على ضفة النهر مدندنًا: «تيرالام... تيرالام»، وتنقضي ساعة في صمت وتمر أخرى. تتهامس الزوجة والحماة ثم تنهضان وتحدقان فيه لبرهة من الوقت في انتظار أن ينظر إليهما، ثم تنحنيان بحدة وتتحدثان بصوت عذب قائلتين:

- وداعًا يا ستيبان بيتروفيتش ([14])!.

ثم تغادران. بعد ذلك يتناول ستيبان الصرة التي تركتاها له وفيها ككعك أو قميص. كان يتنهد ويقول بعد أن يغمز بعينه في اتجاههما:

- آه من النساء!

وكانت الطاحونة ذات الرحوين تعمل نهارًا وليلًا. كنت أساعد ستيبان، وكان ذلك يروق لي، وعندما كان يمضي إلى مكان ما، كنت أحل محله طوعًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

11--

بعد فترة من الطقس الدافئ المشرق تغير الطقس، فظلت الأمطار تنهمر طوال شهر مايو وكان الجو باردًا. وكان في صوت الطاحونة والأمطار ما يدفع المرء للتراخي والنعاس. ارتعشت الأرض، وفاحت رائحة الدقيق، وكان في ذلك أيضًا ما يغري بالنعاس. كانت زوجتي تأتيني مرتين في اليوم، وقد ارتدت سترة قصيرة وحذاءً رجاليًّا طويل الساق، وتقول دائمًا:

- وتسمي هذا صيفًا؟ إنه أسوأ من الطقس في أكتوبر!

وكنا نشرب الشاي معًا، ونعد العصيدة، أو نجلس صامتين طوال ساعات كاملة في انتظار انقطاع المطر. ذات مرة مضى ستيبان إلى السوق لغرض ما، فقضت ماشا الليلة بأكملها معي في الطاحونة. عندما استيقظنا لم يكن بإمكاننا أن نخمن الوقت، فقد كانت السحب الممطرة تغطي السماء كلها، ولكن الديكة الناعسة كانت تصيح في دوبيتشنيا، والمرع ([15]) تحلق حول المروج، لذا أدركنا أننا استيقظنا في وقت مبكر؛ مبكر للغاية! مضينا إلى بركة الطاحونة وجذبنا الشبكة التي مدَّها ستيبان عشية اليوم السابق، فوجدنا فيها سمكة ضخمة لا تزال ترتجف، وسلطعون النهر متشبثًا في الشبكة بكلاليبه.

قالت ماشا:

- دعهما تذهبان كي تسعدا.

ولأننا نهضنا في وقت مبكر للغاية في هذا اليوم، ولم نفعل شيئًا بعدها، بدا لنا اليوم طويلًا؛ بل أطول يوم في حياتي! قبيل المساء عاد ستيبان، وعدت للمنزل بالمزرعة.

قالت ماشا:

- لقد جاء أبوك اليوم.

- وأين هو؟

- رحل. لم أستضفه.

وعندما رأتني قد لزمت الصمت، شاعرًا بالأسف على والدي قالت:

- لا بد وأن يكون الإنسان متسقًا مع ذاته. لم أرد استقباله، وبعثت إليه قائلة ألا يزعج نفسه ويأتينا بعد اليوم.

بعدها ببرهة قصيرة غادرت البوابة، ومضيت إلى البلدة لكي أوضح الأمر لوالدي. كان الطريق موحلًا زلقًا باردًا. إنها المرة الأولى منذ عقد قراننا التي

أشعر فيها بالحزن، وفي ذهني الذي أضناه ذلك اليوم الممل الطويل قد انبعثت فكرة أني ربما أعيش ليس كما يجب. كنت منهكًا، ورويدًا رويدًا غلبني الضعف والكسل، ولم أعد أشعر برغبة في التحرك أو التفكير. سرت قليلًا في طريقي ثم لوَّحت بذراعي وعدت للمنزل.

كان المهندس واقفًا في منتصف الفناء، مرتديًا معطفًا جلديًّا، وقال بصوت مدوٍّ:

- أين الأثاث؟ كان بالمكان أثاث رائع على الطراز الإمبراطوري، وكانت هناك لوحات وزهريات، بينما المكان فارغ تمامًا الآن، يمكن للمرء أن يلعب فيه الكرة. لقد اشتريت ضيعة بأثاث، فليأخذها الشيطان!

وكان موسى واقفًا بقربه وقد جعَّد قبعته بين يديه، وهو خادم أرملة الجنرال، في الخامس والعشرين من العمر تقريبًا، نحيل الجسد مجدور الوجه، بعينين صغيرتين سفيهتين، وكانت إحدى وجنتيه أكبر من الأخرى، وكأنه قد نام فوقها مطولًا. أجابه موسى بتردد:

- على ما أذكر كان سعادتكم سعيدًا بشراء المنزل دون أثاث.

فصاح المهندس:

- صه!

واحمرّ وجهه وارتعد غضبًا، وترددت صيحته عاليًا في الحديقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



--12

كنت أجد موسى واقفًا أمامي عندما أقوم بأي شيء في الحديقة أو الفناء، وقد طوى ذراعيه خلف ظهره، ينظر إليَّ بكسل ووقاحة بعينيه الصغيرتين. كان ذلك يثيرني بشدة إلى درجة أن أترك العمل وأمضي بعيدًا.

عرفنا من ستيبان أن هذا المدعو موسى كان عشيقًا لأرملة الجنرال. لقد لاحظت أن الناس عندما كانوا يذهبون إليها طلبًا لاقتراض المال، كانوا يتوجهون أولًا إلى موسى، وذات مرة رأيت فلاحًا شديد السمرة، لا بد وأنه يعمل بحمل الفحم، ركع عند قدميه، وأحيانًا كان يعطي المال بنفسه بعد قليل من الهمس، ودون أن يعود إلى سيدته، وقد استنتجت من كل ذلك أن لديه تجارته الخاصة التي يديرها من خلف ظهر الأرملة.

كان من عادته أن يطلق النار في حديقتنا أسفل نوافذنا، وينقل الأطعمة من قبونا، ويأخذ جيادنا دون إذنٍ. هكذا كان الاستياء يزداد في صدورنا وتوقفنا عن الشعور بملكيتنا لدوبتشينيا، وكانت ماشا تقول وقد شحب وجهها:

- أيمكننا فعلًا أن نعيش مع هؤلاء الأدنياء عامًا ونصف آخر؟

أما إيفان تشيبراكوف، ابن أرملة الجنرال، فقد عمل حارسًا بخط السكة الحديد. وفي فترة الشتاء ازداد ضعفًا ونحولًا، حتى أصبح بإمكان كأس واحدة أن تسكره، ويرتعش جسده إذا ما وقف في الظل. كان يرتدي ثياب الحراس على مضض ويخجل منه، لكنه كان يربح من وظيفته إذا ما استطاع سرقة بعض الشمع وبيعه.

أثار مركزي الجديد في نفسه مزيجًا من الدهشة والحسد، وأملًا غامضًا في أن ينتهي أمره إلى شيء يشبه ما قد حدث معي كان يراقب ماشا بنظرة اندهاش، ويسأل عما أتناوله الآن على الغداء ويلوح على وجهه الهزيل القبيح تعبيرٌ حزينٌ عذبٌ، فيحرك أصابعه وكأنه يجس بها سعادتي.

قال لي متململًا، وهو يعيد إشعال سيجارته في كل دقيقة، وكان ركام النفايات دائمًا ما يتراكم حيث يقف، إذ يتلف عشرات أعواد الثقاب كي يشعل سيجارة واحدة.

- اسمع يا أفضل من لا شيء! لقد أصبحت حياتي على أسوأ ما تكون، وفوق ذلك يمكن لأي ضابط أن يصيح: « أنت أيها الحارس! أنت!»، ولقد سمعت الكثير من الأمور يا أخي في عربات القطار، وهل تعلم؟ لقد أدركت أن الحياة دنيئة. أمي هي من أفسدتني. قال لي أحد الأطباء في القطار ذات مرة: «إن كان الوالدان منحلين، فلا بد وأن يصبح أبناؤهما سكارى أو مجرمين». هكذا هو الأمر.

ذات مرة جاء إلى الفناء مترنحًا. كانت عيناه تحدقان أمامه في ذهول، ونفسه ثقيلًا، وكان يضحك ويبكي ويهذي كالمحموم، ولم يكن بالإمكان تمييز كلمة من حديثه المضطرب سوى «أمي!» - «أين أمي؟»، وكان يقول ذلك باكيًا كالطفل الذي فقد أمه وسط الزحام. أخذته إلى الحديقة وجعلته يتمدد تحت إحدى الأشجار، وطوال اليوم تناوبنا أنا وماشا على الجلوس بجانبه. لم يكن في حالة جيدة، أما ماشا فكانت تنظر باشمئزاز إلى وجهه الشاحب المبلل وتقول:

- أمن المعقول أن يعيش هؤلاء الأدنياء عامًا ونصف آخر؟ إنه أمر مريع! أمر مريع!

وكم ضايقنا الفلاحون! كم بعثوا في نفوسنا خيبة أمل في شهور الربيع التي أردنا أن ننعم فيها بالسعادة! لقد أنشأت زوجتي مدرسة، ووضعتُ لها خطة كي تسع ستين طالبًا، وأقر مجلس «الزيمستفو»، لكنه نصحنا بأن نقيم المدرسة في كوريلوفكا؛ تلك القرية الكبيرة التي لا تبعد عنا أكثر من ثلاثة فرست، بالإضافة إلى أن المدرسة هناك، والتي كان يتعلم فيها الأطفال من أربع قرى مختلفة - منهم دوبيتشنيا - كانت عتيقة وصغيرة، ولم يكن من اليسير السير فوق أرضها البالية. في نهاية مارس تم تعيين ماشا - حسب رغبتها - مسؤولة عن مدرسة كوريلوفكا. وفي بداية شهر إبريل اجتمعنا بأهل القرية ثلاث مرات، لنقنع الفلاحين أن مدرستهم عتيقة جدًّا وصغيرة، وأن من الضروري بناء أخرى جديدة. وصل أحد أعضاء «الزيمستفو» ومفتش مدارس الفلاحين، وحاولا هم أيضًا إقناع الفلاحين. عقب كل اجتماع كان الفلاحون يحيطون بنا، ويطلبون منا أن نعطيهم دلوًا من الفودكا. كنا نعاملهم بحدة، ولكن سرعان ما خارت قوانا وعدنا إلى المنزل خائبي الأمل ومحبطين. في النهاية خصص الفلاحون قطعة من الأرض من أجل بناء المدرسة، واضطروا إلى نقل كافة مواد البناء من المدينة على متون جيادهم. فيوم الأحد الأول الذي تلا بذر حنطة الربيع، مضت العربات من دوبيتشنيا وكوريلوفكا من أجل جلب الطوب الذي ستبني به المدرسة. انطلقوا مع الفجر، وعادوا في وقت متأخر من الليل، وكان الفلاحون سكارى وقالوا إنهم شعروا بالإنهاك.

والذي زاد من الطين بلة أن المطر واصل انهماره، واستمرت البرودة طوال شهر مايو. أصبحت الطريق موحلة تمامًا. وكانت العربات في طريق عودتها من المدينة تعرج على ساحتنا، وكم كان هذا الأمر فظيعًا! كنا نجد جوادًا سمينًا قد ظهر عند البوابات، وقد عدَّل من وضع قائمتيه الأماميتين، وقبل أن يبلغ الساحة يتعالى الهتاف، وينزلق الجواد، فتنزلق عارضة خشبية مبللة ضخمة من على متن العربة، وإلى جانب الجواد فلاح يرتدي واقيًا من المطر، يحث الخطى، وقد حشر طرف سترته في حزامه، ويخوض في برك الوحل

بصعوبة، ثم تبرز عربة أخرى محملة بالألواح الخشبية كذلك، وثالثة فرابعة... تدريجيًّا تكتظ الساحة بالجياد والعوارض الخشبية والجذوع. ويحدق فينا الفلاحون وقد غطوا رؤوسهم، والفلاحات التي رفعن أطراف ثيابهن حتى لا يخضن في الوحل؛ ينظرون إلينا شذرًا عند نوافذنا، ويثيرون ضجيجًا كي تخرج سيدة المنزل إليهم، ونستمع إلى سباب فاحش. في الوقت نفسه نجد موسى قد تنحى جانبًا، ويبدو لنا أنه في أشد البهجة بما يلحق بنا من خزي.

يصيح الفلاحون:

- لن ننقل شيئًا بعد اليوم. لقد أنهكنا تمامًا. فلتذهبي وتنقلي أنتِ بنفسكِ ما تشائين.

أما ماشا فيشحب وجهها وتعجز عن الكلام، وتعتقد أن الفلاحين لن يلبثوا أن ينقضوا على المنزل، فتخرج إليهم بنصف دلو من الفودكا، فيخفت ضجيجهم، ويخرجون العوارض الخشبية واحدة تلو الأخرى من الفناء.

حين كنت أستعد للذهاب إلى موقع البناء، اضطربت زوجتي وقالت لي:

- الفلاحون غاضبون. أخشى أن يصيبوك بسوء. لا، انتظر. سآتي معك.

وركبنا العربة إلى كوريلوفكا معًا، وهناك طلب منا النجارون أن نمنحهم شيئًا. كان كل شيء جاهزًا من أجل وضع أساس البناية، لكن البناؤون لم يأتوا، وتأخر العمل، وتذمر النجارون. وعندما جاء البناؤون في النهاية تبين أنه ليس لدينا رمل، فقد أغفلنا الأمر بطريقة ما. استغل الفلاحون وضعنا البائس فطلبوا ثلاثين كوبيكًا ثمنًا لكل نقلة رمال مع أن المسافة بين موقع البناء والنهر حيث سيأتون بالرمال لم تكن تتجاوز ربع فرست، وكنا في حاجة إلى أكثر من خمسمائة نقلة. لم تكن هناك نهاية للخلاف والسباب والإلحاح الشديد، وغضبت زوجتي بشدة فأمسكها تيت بتروف مقاول البنائين من يدها، وهو كهلٌ في السبعين من العمر، وقال لها:

- انظري هنا! انظري هنا! ائتيني فقط بالرمل، وسأجمع عشرة رجال للعمل فورًا، وسننهي العمل في يومين لا أكثر. انظري هنا!

وجيء بالرمال، ومر يوم والثاني، وانقضت أربعة أيام فأسبوع، وبدلًا من البناية لم يكن أمامنا سوى حفرة تتثاءب.

اضطربت زوجتي وقالت:

- سأجن! أي شعب هذا! أي شعب هذا!

في غمرة تلك الفوضى جاءنا المهندس فيكتور إيفانيتش، وقد جلب معه خمرًا ومقبلات. استمر في تناول الطعام طويلًا، ثم استلقى لينام في الشرفة

الخارجية، وتعالى غطيطه حتى إن العمال كانوا يهزون رؤوسهم قائلين:

- يا هناه!

لم تبدُ ماشا سعيدة بوصوله. كانت لا تثق فيه بالرغم من أنها في الوقت ذاته كانت تسأله النصح. عندما استيقظ بعد الغداء عكر المزاج، وراح ينتقد طريقة إدارتنا للمكان أو يعبر عن أسفه لشرائه دوبيتشنيا التي جلبت له خسائر جمة، كان تعبير حزين يرتسم على وجه ماشا الشاحب، وكانت تشكو له، فيتثاءب قائلًا: إن الفلاحين لا بد وأن يجلدوا.

وصف زواجنا وحياتنا هنا بالمهزلة، وقال إنهما نزوة ووقاحة.

حكى لي عن ماشا قائلًا:

- لقد حدث معها أمر مشابه من قبل. لقد تخيلت نفسها مغنية أوبرا وتركتني، وأخذت أبحث عنها طوال شهرين، وأنفقت يا عزيزي ألف روبل على البرقيات وحدها لا غير.

لم يعد يسميني منشقًا ولا يناديني: السيد الدهَّان، ولم يعد يبدي موافقته على حياتي كعامل كما فعل من قبل، بل قال:

- أنت إنسان غريب فعلًا! لست إنسانًا طبيعيًّا. لا يمكنني التنبؤ بما سيحدث، لكن يمكنني أن أؤكد لك أن نهايتك ستكون سيئة.

جافى النوم عينَي ماشا، وكانت طوال الوقت تجلس عند نافذة غرفة نومنا وتستغرق في التفكير في شيء ما. غاب الضحك عن العشاء، وانقطعت المزحات اللطيفة، وكنت أعاني. وعندما كان المطر ينهمر كانت كل قطرة منه بمثابة طلقة تصيب قلبي، وكنت مستعدًّا للركوع على ركبتي أمام ماشا للاعتذار عن سوء الطقس! عندما كان الفلاحون يثيرون ضجيجًا في ساحة المنزل، كنت أشعر أني مذنب. لساعات طويلة كنت أجلس ساكنًا في مكاني لا أفكر في شيء سوى ماشا، وكم أنها إنسانة عظيمة يا لها من شخصية فاتنة! كنت مفتونًا بحبها، وكنت أحب كل ما تفعله وما تقوله كان لديها ميل إلى الأعمال المكتبية الهادئة، فقد كانت تحب القراءة مطولًا ودراسة شيء ما على الرغم من أن معرفتها بالزراعة كانت قاصرة على الكتب، لكنها كانت تدهشنا جميعًا بسعة معرفتها، وكانت نصائحها في هذا الميدان جميعًا رائعة، فلم نكن نتجاهل نصيحة واحدة منها في هذا المجال. كم كانت نبيلة! أي ذوق وأي لطف وأي نبل لديها، ذلك الذي لا تجده إلا عند أولئك الذين تمتعوا بتربية ممتازة!

بالنسبة لامرأة كريمة وذكية كماشا، كانت هذه الفوضى والمشاغل الضحلة والمشاداتِ التي نعيش في وسطها الآن مصدر عذاب حقيقي لها. أدركت

ذلك، ولم أكن أستطيع النوم قرير العين في الليالي، فكان دماغي يعمل دائمًا وأستشعر ألمًا في حنجرتي. كنت أتعثر ولا أعرف ماذا يتوجب عليَّ أن أفعل.

ذهبت إلى البلدة مسرعًا وأحضرت كتبًا وصحفًا وحلوى وزهورًا لماشا، واصطدت سمكًا مع ستيبان، وقضيت ساعات طويلة في المياه الباردة التي وصلت حتى عنقي لألتقط بربوطًا أنوِّع به مائدة طعامنا، وطلبت بخنوع من الفلاحين ألا يثيروا ضجيجًا، وأغدقت عليهم الفودكا ووعدتهم بمختلف الوعود. كم ارتكبت من حماقات أخرى!

توقفت الأمطار في نهاية الأمر، وجفت الأرض. أصبح في مقدور المرء أن ينهض في الرابعة صباحًا، ويخرج إلى الحديقة، فيجد الندى يتلألأ على الزهور، والطيور تغرد ويتعالى أزيز الحشرات، وما من سحابة واحدة تفسد صفاء السماء، والمرج والنهر في غاية الروعة، ولكن آآه من ذكرى الفلاحين وعرباتهم والمهندس! مضيت أنا وماشا في عربة السباق إلى الحقل لنلقي نظرة على الشوفان. تولت هي قيادة المركبة، وجلستُ أنا في الخلف. رفعت كتفيها، وكانت الريح تلاعبُ شعرها. كانت تصيح لمن تجده في طريقها:

- إلزم اليمين!

قلت لها:

- تشبهين حوذيًّا.

- ربما! كان جدي لوالدي يعمل حوذيًّا. أتعرف ذلك؟

هكذا سألتني وإلتفتت صوبي، وأخذت تقلد صياح وغناء الحوذيين. قلت في نفسي وأنا أستمع إليها:

- الحمد للّه! الحمد للّه!

وراودتني من جديد ذكريات الفلاحين والعربات والمهندس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



-13-

جاءنا الطبيب بلاجوفو على دراجته، وأخذت شقيقتي تزورنا. دار العمل من جديد عن العمل البدني والتقدم والعصر الألفي الغامض الذي ينتظر الإنسانية في المستقبل القريب. لم يكن الطبيب يحب عملنا بالزراعة لأنه يحول بيننا وبين الجدال، وكان يقول إن الحرث والحصاد ورعي الماشية وتربية العجول ليست عملًا جديرًا بالإنسان الحر، وإن كل أشكال العمل الخشن التي يقوم بها الإنسان في صراعه من أجل الوجود سيقع عاتقها في المستقبل على كاهل الحيوانات والآلات، أما البشر فلن ينشغلوا بشيء إلا البحث العلمي. أما شقيقتي فتتطلب بإلحاح أن ندعها تعود إلى المنزل مبكرًا، وإن مكثت حتى ساعة متأخرة أو قضت ليلتها عندنا، فلا ينتهي اضطرابها أبدًا.

قالت ماشا مؤنبة إياها:

- يا إلهي! يا لكِ من طفلة صغيرة! ما هذا السخف؟

فتوافقها شقيقتي قائلةً:

- نعم، إنه سخف فعلًا. أعترف بذلك، ولكن ما العمل إن لم تكن لديَّ القوة لأتغلب عليه؟ أشعر دائمًا أني أرتكب شرًّا!

وعند موعد تجفيف العشب من أجل صنع العلف، كنت أشعر بالآلام تغزو جسدي كله، فأجلس في الشرفة الخارجية بالمساء وأتحدث مع الآخرين، ويغالبني النعاس فجأة، فيضجون بالضحك. ثم يوقظونني ويدعونني لتناول العشاء، ولأني في هذه الأوقات كنت أشعر بنعاس رهيب، كنت أرى اللهب والأطباق كأني في حلم، وأستمع إلى أصوات دون أن أتبين ماذا تقول. ثم أنهض في الصباح الباكر فأهرع لجلب المنجل وأسرع إلى البناية وأعمل طوال اليوم.

أثناء بقائي في المنزل أيام الأعياد لاحظت أن شقيقتي وزوجتي تخفيان عني شيئًا، بل إنهما تتهربان مني. كانت زوجتي لطيفة معي كسابق عهدها، ولكن بدا كما لو أنها تفكر في أمور لا تحدثني عنها لم يكن هناك أدنى شك في تعاظم غضبها من الفلاحين، وقد أصبحت الحياة بالنسبة إليها أثقل وطأة، لكنها لم تعد تشكو لي شيئًا صارت تكثر من الحديث مع الطبيب برغبة أشد من رغبتها في الحديث معي، ولم أفهم سبب ذلك.

كانت العادة في مقاطعتنا أن يأتي الفلاحون إبان تجفيف العشب والحصاد في الليالي إلى ساحات منازل السادة ويستمتعون بشرب الفودكا، وكانت حتى الفتيات الصغيرات يأتين ويشربن من الكؤوس. لم نحتمل القيام بذلك، لذا كان صانعو التبن والفلاحات يقفون عندنا في الساحة حتى وقت متأخر من

الليل في انتظار الفودكا، ثم تبدأ وصلة السباب. في هذا الوقت كان وجه ماشا يعبس بشدة، وتصمت أو تُحدِّث الطبيب بغضب بصوت مبحوح قائلة:

- وحوش! همج!

لم يكن الوافدون الجدد يتم استقبالهم في الريف بأي ود، بل يستقبلونهم بعداء تقريبًا، كما هو الأمر في المدرسة. هكذا استقبلونا. كانوا في البداية ينظرون إلينا نظرتهم إلى أناس أغبياء حمقى اشتروا لأنفسهم ضيعة؛ لأنهم لا يعرفون على ماذا ينفقون مالهم. كانوا يسخرون منا، ويتركون ماشيتهم ترعى في أرضنا، وحتى في حديقتنا، ويطردون خيولنا وأبقارنا إلى القرية، ثم يطالبوننا بتعويض عن الخسائر التي تسببت فيها الخيول والأبقار. كانوا يأتون إلينا في ساحة منزلنا جماعات ويصيحون فينا قائلين أننا اقتطعنا جزءًا من أرض لا نملكها أثناء الحصاد، ولأننا لم نكن نعرف حدود أرضنا على وجه الدقة، فقد صدقناهم ودفعنا إليهم مقابل الخسارة التي ظننا أنها لحقت بهم، ثم تبين لنا أننا لم نرتكب خطأً أثناء الحصاد. كانوا ينزعون أيضًا لحاء أشجارنا. لقد أقدم أحد فلاحي دوبيتشنيا، وهو من المزارعين الأغنياء الذين يتاجرون في الفودكا دون رخصة، على رشوة فلاحينا، وخدعونا بغدر شديد، فانتزعوا العجلات الجديدة من عرباتنا وبدَّلوها بأخرى قديمة، واستولوا على أدوات الحراثة ثم باعونا إياها... إلخ. لكن أكثر ما ساءنا كان ما حدث في البناية بكوريلوفكا، فقد أقدمت الفلاحات هناك في الليل على سرقة العوارض الخشبية والطوب والقرميد والحديد، وفتَّش شيخ القرية بصحبة بعض الشهود بيوتهن، وغرَّم مجلس القرية كل منهن روبلين، ثم أنفق هذا المال على جلب الخمر وسكر الجميع.

عندما عرفت ماشا عن ذلك، كانت تقول للطبيب أو لشقيقتي بغضب شديد:

- يا لهم من بهائم! أمر مريع! مريع!

وسمعتها أكثر من مرة تعرب عن ندمها على التخطيط لبناء المدرسة.

حاول الطبيب أن يقنعها بقوله:

- افهمي! افهمي أنكِ إن أردتِ أن تشيدي هذه المدرسة، أو أن تصنعي الخير بشكل عام، فإنكِ لا تقومين بهذا من أجل الفلاحين، ولكن باسم الثقافة والمستقبل. وكلما كان الفلاحون أسوأ، كلما زادت الحاجة لتشييد المدرسة. عليكِ أن تدركي ذلك.

ومع ذلك لم تكن لهجته تشي بقناعته بما يقوله، وبدا لي أنه يشارك ماشا في كراهية الفلاحين.

كانت ماشا كثيرًا ما تذهب إلى الطاحونة، وتصطحب شقيقتي معها وتقولان ضاحكتين إنهما ذاهبتان لرؤية ستيبان، فهو رائع. تبين أن ستيبان كان كسولًا صموتًا مع الرجال فقط، أما في حضرة النساء فكان ينطلق ويتحدث دون توقف. ذات مرة كنت ذاهبًا إلى النهر لأسبح، وسمعت على نحو عفوي حديثًا بين ماشا وكليوباترا. ارتدت كلتاهما ثيابًا بيضاء، وكانتا جالستين على ضفة النهر في مكان ظليل، بينما ستيبان واقف بجانبهما عاقدًا يديه خلف ظهره، وقال:

- هل الفلاحون بشر؟ إنهم ليسوا كذلك، بل إنهم - عذرًا على التعبير - وحوش ومحتالون. ما جوهر حياة الفلاح؟ إنها ليست إلا تناول الطعام والشراب، ولا يهمه شيء سوى رخص الطعام، وأن يشرب الخمر في الحانة بجنون. لا يتحدثون حديثًا لائقًا وليست لديهم أصول للتعامل ولا أي نظام. إنهم همج! يخوض الفلاح وزوجته في الوحل، وكذلك أطفالهما، ولا يبدل ثيابه عند النوم، ويلتقط البطاطس بأصابعه مباشرة، ويشرب الكفاس في الحانة تسبح فيه الصراصير دون أن يشغل باله بإبعادها.

فصاحت شقيقتي:

- هذا بسبب الفقر طبعًا.

- أي فقر؟ هناك صنوف مختلفة من الحاجة. إن كان رجل سجينًا، أو فلنقل أعمى أو كسيحًا، فهذه بلية لا أتمناها حقًّا لأحد، ولكن إن كان حرًّا وعاقلًا، لديه عينان وذراعان، ولديه القوة وإيمانه باللّه، فما الذي ينقصه بعد؟ هذا بفعل الوقاحة والجهل يا سيدتي، لا الفقر. إن افترضنا أننا جماعة السادة النبلاء، أردنا بدافع من مستوى ثقافاتنا ونبل قلوبنا أن نقدم يد العون لواحد من الفلاحين، فسيبدد ما تقدمونه له من مال بكل نذالة، أو ربما يفعل الأسوأ من ذلك، فيفتتح حانة ويقضي على بقية الفلاحين بمساعدة ما تقدمونه له من مال. وتقولين الفقر؟ هل يعيش الفلاح الثري إذَنْ على نحو أفضل؟ إنه يعيش - وعذرًا على التعبير - هو أيضًا كخنزير؛ ثرثارًا نذلًا، يزداد سمنة، وتحمر وجنتاه، أود لو أصفعه صفعة قوية هذا الوغد. هاكم لاريون، وهو من أثرياء دوبيتشنيا، وربما ينزع اللحاء عن أشجاركم بقدر ما يفعل أي فلاح فقير. وهو لا يتوقف عن السباب، فيسب أطفاله، وما إن يفرط في الشراب، حتى يسقط في بركة من الوحل وينام إنهم جميعًا لا يساوون شيئًا يا سيدتي إن عاش المرء معهم في القرية يشعر أنه ذهب إلى جهنم إني أشكر الرب أنَّ لديَّ كل ما أحتاجه من طعام وثياب. قد خدمت في سلاح الفرسان، ثم عملت شيخًا للقرية لثلاثة أعوام، والآن أنا قوزاقي حر، أمضي حيثما أشاء، وأعيش حيثما أريد. لكني لا أود أن أعيش في القرية، ولا أحد لديه الحق في إجباري على

ذلك. يقولون: وزوجتك؟ يقولون إني ملزم بالعيش معها في كوخي، ولكن لماذا يتوجب عليَّ ذلك؟ لست أجيرًا لديها.

سألته ماشا:

- قل لي يا ستيبان: هل تزوجتها عن حب؟

فضحك ستيبان وأجابها:

- وأي حب هذا الذي نجده في القرية؟ في الواقع يا سيدتي إن أردتِ أن تعرفي، فهذه هي زوجتي الثانية. أنا لست من قرية كوريلوفكا، بل من زاليجوشا، لكنني أتيت إلى كوريلوفكا بعد الزواج، فأبي لم يرغب في تقسيم الأرض بيننا، وكنا خمسة إخوة، فوافقت على الذهاب إلى قرية غريبة لأعيش مع أهل زوجتي. أما زوجتي الأولى فماتت وهي في ريعان الصبا.

- كيف؟

- بسبب الغباء. كانت تبكي طوال الوقت دون سبب واضح، وهكذا هزلت. كانت تشرب نقيع كافة الأعشاب حتى يزداد وجهها جمالًا. نعم، ولا بد أن هذا قد أضرها. أما زوجتي الثانية فهي من كوريلوفكا، ولا تتميز بشيء خاص. إنها امرأة قروية، فلاحة ولا أكثر من ذلك. عندما خطبوها لي ابتهجت، فقد كنت أعتقد أنها شابة بيضاء وأنها تعيش مع أهلها في نظافة. بدت كما لو أن أمها من أولئك الذين يجلدون أنفسهم ([16])، تشرب القهوة، والأهم من كل ذلك أنهم ولا ريب كانوا شديدي النظافة. هكذا تزوجتها، وفي اليوم التالي جلسنا لنتناول طعام الغداء، فطلبت من حماتي ملعقة، فمسحت الملعقة بأصابعها. قلت لنفسي: حسنًا، يكفي هذا القدر من النظافة. عشت معهم عامًا واحدًا، ثم رحلت. كان بإمكاني أن أتزوج فتاة من البلدة.

صمت لبرهة ثم أكمل:

- يقولون إن الزوجة رفيقة لزوجها، ولكن ما حاجتي إلى رفيقة؟ أنا أعين نفسي. أنا أحب أن يتحدث أحد معي، ولكن ليس حديثًا فارغًا، ولكن حديثًا مفصلًا من القلب. فما قيمة الحياة دون مثل هذا الحديث؟

وصمت ستيبان فجأة، وسمعت حينها دندنته الحزينة الرتيبة: «تيرالام تيرالام». هذا يعني أنه قد رآني.

كانت ماشا كثيرًا ما تذهب إلى الطاحونة، وكان من الواضح أنها تُسَرُّ بالتحدث إلى ستيبان، فقد كان ستيبان يسب الفلاحين بشدة، ولا بد أن هذا ما كان يجذبها إليه. عندما كانت تعود من هناك، يصيح فيها الفلاح الأحمق الذي يعمل في الحديقة:

- بالافكا العاهرة! أهلا يا بالافكا العاهرة!

ثم ينبح فيها كالكلب:

- هو هو هو!

وكانت تقف وتنظر إليه بانتباه، وكأنها تجد في نباح هذا الأحمق جوابًا عن أفكارها، ومن المحتمل أنه كان يجذبها بالطريقة نفسها التي كان يجذبها بها ستيبان ثم تدخل المنزل فتجد نبأً في انتظارها من قبيل: الإوز القادم من القرية قد أفسد الكرنب في حديقتنا، أو أن لاريون سرق أعنة الخيل، فتهز كتفيها وتقول ضاحكة:

- وماذا ينتظر المرء من هؤلاء الناس؟

استولت عليها نوبة شديدة من الغضب، وتراكم في داخلها، بينما كنت في ذلك الوقت قد ألفت الفلاحين وشعرت بالانجذاب نحوهم. كانوا على أقصى تقدير عصبيين غاضبين، قد ذاقوا طعم الإذلال، وطأت الأيام خَيالَهم. كانوا جهلة ينظرون للحياة من منظور فقير ضيق الأفق، ولا يمكنهم التفكير في أمر خلاف الأرض الرمادية، والأيام القاتمة والخبز الأسود والمخادعين من الناس، لكنهم كانوا كالطير لا يخبئون خلف الشجرة سوى رؤوسهم. كانوا قومًا لا يمكنهم إجراء أبسط الحسابات. إنهم لا يأتوننا من أجل العشرين روبلًا التي سيحصلون عليها مقابل حصاد القمح، بل يأتوننا مقابل نصف دلو من الفودكا، مع أن بإمكانهم شراء أربعة دلاء بالعشرين روبلًا. في الحقيقة كانت هناك قذارة، وكان هناك سُكر وغباء وخداع، ولكن إلى جانب ذلك كان بإمكاني أن أشعر أن حياة الفلاحين تستند في النهاية على أساس صلب. مهما بدا الفلاح خلف محراثه وحشًا صعب المراس، ومهما سكر بالفودكا، لكنك إن نظرت إليه عن كثب ستشعر أن فيه ما نحن في حاجة إليه فعلًا؛ شيء هام جدًّا غير موجود مثلًا في الطبيب وماشا هذا الشيء هو إيمانه أن العدل والحقيقة هما أهم ما في الحياة، وأن خلاصه وخلاص الشعب بأكمله موجود في الحقيقة وحدها، لذا فهو يحب العدالة أكثر من أي شيء آخر في العالم. كنت أقول لزوجتي إنها تنظر إلى البقع الموجودة على المرآة، ولا تنظر للمرآة نفسها، وكانت تجيبني بالصمت أو تدمدم كستيبان: «تيرالام... تيرالام». كنت أشعر بالحيرة الشديدة عندما أرى هذه المرأة الذكية قد شحب وجهها من فرط الاستياء وتحدث الطبيب بصوت مرتعش عن السكر والخداع، وكنت أشعر بالذهول من قدرتها على النسيان. كيف أمكنها أن تنسى أن أباها المهندس كان يشرب، ويسرف في الشراب، وأن النقود التي اشترى بها دوبيتشنيا كان قد جمعها عن طريق سلسلة كاملة من المخادعات الوقحة التي لا يقوم بها سوى إنسان معدوم الضمير؟ كيف نست ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

14--

كانت شقيقتي هي الأخرى تعيش حياتها الخاصة التي بذلت جهدًا كي تخفيها عني. كنت أجدها كثيرًا تتهامس مع ماشا، وعندما أقترب منها كانت تنكمش على نفسها، وتشي نظرتها بالذنب والتوسل كان من الواضح أن شيئًا ما يعتريها؛ شيئًا تخشاه أو تستحي منه وكي تتجنب لقائي في الحديقة أو البقاء وحدها معي كانت لا تفارق ماشا أبدًا، وأصبحت لا تتحدث معي إلا نادرًا، وغالبًا ما يكون ذلك على طاولة الغداء.

ذات مساء كنت أسير بهدوء في الحديقة، عائدًا من البناية، كان الظلام قد خيَّم بالفعل، رأيت شقيقتي تتمشى بالقرب من شجرة التفاح العتيقة بهدوء تام وكأنها شبح، ولم تكن قد لاحظت وجودي أو استمعت لخطواتي. كانت ترتدي زيًّا أسود. ذرعت المكان جيئةً وذهوبًا ناظرة إلى الأرض، وسقطت تفاحة من الشجرة، فأجفلت من وقع صوتها وتوقفت ضاغطة بيديها على صدغيها. في تلك اللحظة تحديدًا تقدمت نحوها.

اكتنفتني دفقة من عاطفة الحب الرقيقة، واغرورقت عينايَ بالدموع حينما تذكرت لسبب ما والدتنا وطفولتنا، فطوقت كتفيها بذراعيَّ وقبلتها، وسألتها:

- ماذا بكِ؟ أنتِ تعانين من شيء ما، ولقد لاحظت ذلك منذ زمن طويل. قولي لي ماذا بكِ؟

فقالت وجسدها يرتعش:

- أشعر بالخوف.

أصررتُ على سؤالي قائلًا:

- ماذا بكِ؟ صارحيني بحق اللّه.

- سأصارحك. سأقول لك الحقيقة كلها. إن إخفاء الحقيقة عنك أمر عسير للغاية يُعذِّب روحي! ميسايل، أنا أحب...

وأكملت همسًا:

- أنا أحب.... أنا أحب... أنا سعيدة. ولكن لماذا أنا خائفة إلى هذا الحد؟

تهادى إلينا وقع أقدام، وظهر لطبيب بلاجوفو بين الأشجار مرتديًا قميصه الحريري، وحذاء طويل الساقين. من الواضح أنهما كان على موعد إذن هنا عند شجرة التفاح. ما إن رأته حتى اندفعت صوبه بانفعال وقد أطلقت صرخة ألم، وكأنه قد انتزع منها.

- فلاديمير! فلاديمير!

وألقت بنفسها إليه وأخذت تنظر لوجهه بنهم، ولم ألحظ سوى الآن كيف نحف جسدها وشحب وجهها في الآونة الأخيرة. لاح ذلك بوضوح عبر ياقتها التي أعرفها منذ زمن طويل، والتي تبدو الآن متهدلة حول عنقها النحيل الطويل. ارتبك الطبيب، ولكن سرعان ما تمالك نفسه وقال مسويًا خصلات شعرها:

- حسنًا، كفى! كفى! لِمَ كل هذا الانفعال؟ ها قد وصلت كما ترين.

صمتنا، وأخذ كل منا يرمق الآخر بارتباك. ثم مضينا جميعًا، وسمعت الطبيب يقول لي:

- لم تبدأ الحياة الثقافية الحقيقة عندنا بعد. يُعزِّي الشيوخ أنفسهم قائلين إنه إن لم يكن لدينا الآن شيء حقيقي، فقد كان لدينا في الأربعينيات أو الستينيات، ولكن هؤلاء هم الشيوخ! أما نحن فلا نزال شبابًا، ولم يصب خرف الشيخوخة عقولنا بعد لا يمكننا أن نعزي أنفسنا بهذه الأوهام؟ لقد نشأت روسيا في عام 862، لكن الحياة الثقافية الحقيقية لم تبدأ فيها بعد. هذا ما أدركه بوضوح ولا أكثر من ذلك.

لكني شردت عن هذه الأفكار. كم كان من المريع ألا أصدق ما أراه أمامي! شقيقتي عاشقة، وتسير أمامي ممسكة بيد رجل غريب، وتنظر إليه بهيام. شقيقتي، تلك الشخصية العصبية المرعوبة المنتهكة المقيدة بالأغلال، تحب إنسانًا متزوجًا ولديه أطفال. أيعقل هذا؟ شعرت بالأسف لسبب لا أعرفه تحديدًا، كما شعرت أن وجود الطبيب بغيضٌ إلى نفسي لسبب ما، ولم يكن بمقدوري أن أفهم إلى ماذا يمكن أن يؤدي هذا الحب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



--15

ذهبت بصحبة ماشا على متن العربة إلى البناية في كوريلوفكا.

قالت ماشا بعذوبة وهي تنظر إلى جانبيها:

- الخريف، الخريف، الخريف... انقضى الصيف، وما من طيور الآن، ولم يتبقَّ شيء من الخضار سوى في الصفصاف.

أجل، لقد انقضى الصيف. الأيام الآن مشرقة دافئة، ولكن في الصباح يكون الجو منعشًا، وبدأ الرعاة يخرجون بالفعل بمعاطفهم المصنوعة من صوف الخرفان. في حديقتنا لم يكن الندى يجف من على أوراق نباتات الأسطر النجمية طوال النهار. تتناهى إلى الآذان طوال الوقت أصوات حزينة، ولم يكن بمقدور المرء أن يتبين ما إن كانت هذه الأصوات تنطلق من مصاريع النوافذ التي تصدر صريرًا، أم من مفاصلها الصدئة أم من طيور الكراكي الطائرة، وكانت السعادة تغمر القلب، وتملؤه الرغبة في الحياة!

قالت ماشا:

- انقضى الصيف. بإمكاننا الآن أن نرى النتائج. لقد عملنا وفكرنا كثيرًا، وقد جنينا فائدة من ذلك، وأصبنا تقدمًا فيما يتعلق بكمالنا الشخصي، ولكن هل كان لنجاحنا هذا تأثير ملحوظ على حياة من حولنا؟ هل جلبنا أي فائدة تذكر لأي شخص؟ لا، فالجهل والقذارة الجسدية والسكر والارتفاع الرهيب في نسبة وفيات الأطفال كما هي، ولم تتحسن ظروف أحد من قيامك بحرث الأرض وزرعها، ومن تبديدي المال وقراءتي للكتب. من الواضح إذَنْ أننا عملنا من أجل أنفسنا، ولم نفكر على نطاق واسع إلا في أنفسنا.

شعرت بألم شديد من مثل هذه الأفكار، ولم أعرف بأي شيء أفكر.

- لقد كنا مخلصين من البداية وحتى النهاية، والمخلص دومًا على حق.

- ومن يشكك في إخلاصنا؟ لكننا لم نحقق على وجه سليم ما كنا على حق فيه. فلنفحص بادئ ذي بدء طرقنا الخارجية نفسها. ألم تكن خاطئة؟ لقد أردتَ أن تكون نافعًا للناس، ولكن ما إن تشتري مقاطعة، حتى تحول بين نفسك وبين إمكانية أن تفعل للناس أي شيء يفيدهم. وإن عملت وارتديت وأكلت على طريقة الفلاحين، فإنك تكون قد شرَّعت بما لديك من سلطة من وضع أسمالهم البالية وأكواخهم المريعة ولحاهم الخرقاء. من ناحية أخرى فلنفترض أنك عملت لأعوام طويلة، طويلة جدًّا طوال حياتك، لتحقق في النهاية بعض النتائج العملية، فماذا يمكن أن تقوم به هذه النتائج ضد هذه القوى الرهيبة كالجهل والجوع والبرد والانحلال؟ إنها قطرة وسط بحر. لا بد

لنا من وسائل أخرى للنضال؛ وسائل قوية جريئة سريعة. إن أردت أن تكون مفيدًا حقًّا، فلا بد أن تخرج من دائرة العمل الاجتماعي العادي الضيقة، وتحاول أن تؤثر مباشرةً على الجماهير. لا بد قبل أي شيء آخر من دعاية فعَّالة عالية الصوت. لماذا يتمتع الفن، الموسيقى مثلًا، بهذه الحيوية والشعبية والقوة؟ ذلك لأن الموسيقي أو المغني يؤثر على الآلاف بشكل مباشر. إنه الفن، الفن الساحر!

وأكملت شاخصة إلى السماء بنظرة حالمة:

- الفن يمنحنا أجنحة ويحلق بنا بعيدًا... بعيدًا! كل مَن تستولي عليه القذارة والمصالح التافهة الحقيرة، وكل ساخط مكلوم لا يمكنه أن يجد الراحة والرضى سوى في الجمال.

عندما اقتربنا من كوريلوفكا، كان الجو مشرقًا مبهجًا. كان الفلاحون يدرسون الحنطة في مكان ما، وفاحت رائحة تبن الجاودار. واحمرت ثمار نبات العص خلف الأسيجة المصنوعة من الأغصان، ولاحت الأشجار للنظر في كل مكان ذهبية وحمراء. كان الفلاحون يقرعون الأجراس، ويحملون الأيقونة المقدسة للمدرسة، وتهادت للآذان أصوات غنائهم: «يا شفيعتنا، يا حاميتنا!» ([17]). كان الهواء شديد الصفاء، وكم كان الحمام يحلق عاليًا! أقاموا الصلاة داخل الفصل، ثم جلب فلاحو كوريلوفكا الأيقونة إلى ماشا، وقدم فلاحو دوبيتشنيا رغيفًا كبيرًا وملاحة ذهبية ([18])، فانخرطت ماشا في البكاء.

انحنى لها أحد الشيوخ، وقال:

- سامحونا إن كنا قلنا شيئًا لم يكن علينا أن نقوله، أو قمنا بأي فعل بعث الاستياء في قلبيكما.

في طريق عودتنا لمنزلنا لم تتوقف ماشا عن التلفت في اتجاه مدرستنا والسطح الأخضر الذي طليته بنفسي، وكان يومض تحت أشعة الشمس الذهبية، لكني شعرت أن هذه النظرات التي ألقتها ماشا على المدرسة كانت نظرات وداع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



-- 16

في المساء استعدت ماشا للذهاب إلى البلدة.

في الفترة الأخيرة كانت تذهب كثيرًا للبلدة وتبيت هناك. في غيابها لم أكن أستطيع العمل. كنت أشعر بالضعف يدب في ذراعيّ، ويبدو فناؤنا الكبير موحشًا قفرًا يبعث الاشمئزاز في النفس، وتضج الأصوات في الحديقة بغضب، ولا أعود أشعر أن المنزل والقرية والجياد تنتمي لنا.

لم أكن أفارق المنزل في هذه الأوقات، بل أجلس طوال الوقت إلى طاولتها بالقرب من خزانتها المليئة بكتب الزراعة التي كانت مفضلة لديها من قبل، لكنها الآن أصبحت بلا نفع، فهي تنظر لي الآن بخجل. طوال ساعات طويلة، وقد دقت الساعة السابعة والثامنة فالتاسعة، والليل الخريفي قد لاح من النوافذ أسودَ كالسخام، كنت أنظر إلى قفازها القديم، أو قلمها الذي كانت تكتب به دائمًا، أو مقصها الصغير. لم أكن أفعل شيئًا، وقد أدركت بوضوح أن كل ما فعلته سابقًا من حرث للأرض وحصد وقطع أخشاب قمت به لأنها أرادت ذلك فإن كانت قد بعثت بي لتنظيف بئر عميق حيث يتوجب عليَّ الوقوف في الماء حتى خصري، لهرعت إلى البئر دون أن أتساءل ما إن كانت هناك ضرورة لذلك أم لا أما الآن وهي بعيدة عني، تبدو دوبيتشنيا لي بخرائبها وفوضاها العارمة، ومصاريع نوافذها المغلقة ولصوصها الليليين والنهاريين فوضى لا يجدي معها عمل. ولماذا أعمل هنا من الأساس؟ ولماذا أشغل بالي بالتفكير في المستقبل إن كنت قد شعرت أن الأرض تنهار تحت قدميَّ، وأن دوري هنا في دوبيتشنيا قد انتهى بالفعل، وأن مصيري الذي ينتظرني هو نفس مصير تلك الكتب الزراعية التي في خزانتها؟ يا للكمد الذي كان يكتنفني في الليل، في ساعات وحدتي، حين أنصت في كل لحظة بقلق وكأني أنتظر صيحة ما تقول لي إنه قد حان وقت الرحيل لم أكن آسفًا على دوبيتشنيا، وإنما على حبي الذي اتضح أن خريفه قد حان يا لهول سعادة المرء عندما يُحِب ويُحَب! وما أفظع أن يجد نفسه قد سقط من فوق تلك القمة الشاهقة!.

في اليوم التالي عادت ماشا من البلدة قبالة المساء كانت مستاءة من شيء ما، لكنها أخفته عني، ولم تقل لي شيئًا سوى أن تساءلت لماذا رَكَّبْتُ أطر النوافذ استعدادًا للشتاء؟ قالت إن هذا سيجعلها تختنق. نزعتُ إطارين. لم تكن بنا رغبة لتناول الطعام، ومع ذلك جلسنا لتناول العشاء.

قالت زوجتي:

- اغسل يديك. رائحة الملاط تفوح منهما.

كانت قد جلبت معها من البلدة بعض الصحف الجديدة المصورة، فتصفحناها معًا بعد العشاء، وكانت هناك ملاحق للصحف خاصة بأحدث الأزياء. ألقت ماشا نظرة على تلك الملاحق، ثم نحَّتها جانبًا لتنظر إليها بتمعن فيما بعد، ولكنَّ ثوبًا ذا تنورة لطيفة وأكمام كبيرة قد أثار اهتمامها، وأخذت تتأمل فيه لبرهة بجدية وانتباه.

قالت:

- ليس سيئًا.

فقلت لها:

- نعم، سيليق عليكِ كثيرًا.

ونظرت إلى الثوب بانفعال، ولم أشعر بالإعجاب بتلك البقعة الرمادية إلا لأنها راقت لها. أكملت برقة:

- يا له من ثوب رائع فاتن يا حلوتي وعزيزتي ماشا!

وانهمرت الدموع على الصورة. تمتمت قائلًا:

- يا ماشا الرائعة يا عزيزتي، يا حلوتي.

مضت إلى الغرفة واستلقت، بينما جلست ساعة أخرى أتصفح الملحق. قالت لي من داخل غرفة النوم:

- عبثًا وضعت أطر النوافذ. أعتقد أن الجو لن يكون باردًا. أي تيار هواء هناك!

وقرأت عن وصفة عمل حبر رخيص، وعن أضخم ماسة في العالم، ثم أعدت النظر في ذلك الزي الذي راق لها وتخيلت نفسي معها في حفلة راقصة، وقد ارتدت فستانًا كشف عن كتفيها، وبدت رائعة فاتنة لامعة، ولها خبرة جيدة بالموسيقى والرسم والأدب. كم بدا لي دوري حينها صغيرًا تافهًا!

كان لقاؤنا وزواجنا مجرد مرحلة واحدة ستتبعها مراحل أخرى في حياة هذه المرأة الحيوية النشيطة الموهوبة بشدة. خير ما في العالم كان تحت يدها كما قلت سابقًا، ودون مقابل، وحتى الأفكار والحركات العقلية كانت تبعث السرور في قلبها وتُضفي التنوع على حياتها، ولم أكن أنا سوى الحوذي الذي يقودها من تسلية لأخرى. أما الآن فلم تعد في حاجة إليَّ. ستفر وسأبقى وحيدًا.

انطلقت في الفناء صرخة يائسة، كما لو أنها استجابة لأفكاري:

- النجدة!

كان صوتًا ضعيفًا لفلاحة، وكأن الريح قد أرادت أن تحاكيه، فانطلق صفيرها في المدخنة بصوت ضعيف هي الأخرى. مرت نصف دقيقة أخرى، وتعالى الصياح ثانيةً ولكن من أقصى الفناء الآخر:

- النجدة!

سألتني زوجتي بهدوء:

- ميسايل، أتسمع ذلك؟ أتسمع ذلك؟

وخرجت إليَّ من غرفة النوم بقميص النوم بشعر مبعثر، وأنصتت السمع ناظرة إلى النافذة المظلمة. قالت:

- أحدهم يختنق. هذا ما كان ينقصنا!

تناولت بندقيتي وخرجت. كان الظلام الحالك يخيم على الفناء، والرياح قوية بحيث يصعب الوقوف في وجهها. مضيت إلى البوابة وأنصتُّ السمع: كان حفيف الأشجار شديدًا، والرياح تصفر، والكلب يعوي في تكاسل، ولا بد أنه عند كوخ الفلاح الأحمق. كانت ظلمة حالكة تمامًا خارج البوابات، ولم يكن هناك ضوء واحد عند الخط الحديدي. حول المنزل الصغير الملحق الذي اتخذوه مكتبًا في العام الماضي دوَّتْ فجأة صيحة مكتومة:

- النجدة!

صحتُ:

- مَن هناك؟

رأيت إنسانين يتصارعان. الأول يدفع الثاني، بينما الآخر يرفض التقدم، وكلاهما يلهث بشدة. تكلم أحدهم، وقد عرفته من صوته؛ إنه إيفان تشيبراكوف، وكان هو صاحب الصوت النسوي الضعيف:

- اتركني أيها اللعين وإلا عضضت يدك وقطعتها!

أما الآخر فأدركتُ أنه موسى. فصلتُ بينهما، لكني لم أتمالك نفسي، فلكمتُ وجه موسى مرتين. سقط على الأرض، ثم نهض ثانية، فعاجلته بضربة ثالثة.

تمتم:

- لقد حاول أن يقتلني. كان يحاول سرقة خزانة أمه، وقد أردت أن أحبسه في البناية الملحقة إيثارًا للسلامة.

كان تشيبراكوف ثملًا، ولم يتعرف عليَّ، وكان يلهث بشدة، وكأنه سيصيح ثانية: «النجدة!»

تركتهما وعدت إلى المنزل، ووجدت زوجتي على فراشها وقد ارتدت ثيابها. حكيتُ لها عما حدث في الفناء، ولم أُخْفِ عنها حتى ضربي لموسى. قالت:

- الحياة في القرية مريعة! يا لها من ليلة طويلة. ليتها تنتهي!

وتناهت إلى أسماعنا الصرخة من جديد:

- النجدة!

قلت:

- سأذهب لأضع حدًّا للأمر.

- لا، دعهما حتى لو قضيا على بعضهما البعض.

هكذا قالت لي وقد ارتسم على وجهها تعبير يشي بالتقزز.

كانت تتطلع إلى السقف وتنصت السمع، بينما أنا جالس بجوارها ولم أستطع أن أنبس لها ببنت شفةٍ، وقد راودني شعور بالذنب من انطلاق هذه الصيحة بالفناء «النجدة» ومن طول هذه الليلة.

صمتنا وانتظرت ضوء الفجر ليلوح من النافذة وقد فرغ صبري. أما ماشا فظلت طوال الوقت تحدق أمامها وكأنها استيقظت من حالة ذهول، فهي تتساءل الآن كيف استطاعت، وهي امرأة ذكية مثقفة أنيقة أن تعيش في هذا القفر الريفي البائس، وسط عصبة من الناس التافهين عديمي القيمة، وكيف استطاعت أن تنسى نفسها إلى هذه الدرجة، وتركت واحدًا من هؤلاء الناس يفتنها إلى هذ الحد لتصبح زوجته لأكثر من نصف عام. بدا لي أنها لم تكن تبالي ما إن كنت أنا أم موسى أم تشيبراكوف هو من صاح هذه الصيحة السكيرة الوحشية: «النجدة»، فأنا وزواجنا وضيعتنا وخريفنا الموحل قد أصبحنا جميعًا أمرًا واحدًا. وعندما كانت تتنهد أو تتحرك لتسوي من وضعها، كنت أقرأ في وجهها تعبيرًا يقول: «عسى أن يأتي الصباح سريعًا».

حل الصباح ورحلت.

انتظرتها ثلاثة أيام أخرى في دوبيتشنيا، ثم كوَّمت أغراضنا كلها في غرفة واحدة وأغلقتها وذهبت إلى البلدة. عندما توجهت لمنزل المهندس كان الليل قد ألقى بسدوله، وأشعلت المصابيح في شارعنا دفوريانسكي الكبير. قال لي بافل إن لا أحد بالمنزل، فقد رحل فيكتور إيفانيتش إلى سان بطرسبرج، أما مارينا فيكتوروفنا فلا بد أنها ذهبت لحضور إحدى البروفات عند آل أجوجين.

أذكر الآن اضطرابي الشديد عندما ذهبت لمنزل آل أجوجين، وكم انقبض قلبي بينما كنت أصعد درجات السلم، وكم وقفت بالخارج طويلًا دون أن أجرؤ على دخول هيكل عرائس الشعر هذا! كانت الشموع مضاءة في كل مكان؛ في الصالة وعلى الطاولة والبيانو وعلى المسرح، وكل مجموعة كانت تتألف من ثلاث شموع، وكانوا قد حددوا الثالث عشر من الشهر ليكون موعد عرض المسرحية لأول مرة، واستقروا على يوم الإثنين ليكون موعد البروفة الأولى، وهو يوم مشؤوم، وقد اختاروه ليحاربوا الخرافة! كان كافة محبي فن المسرح محتشدين بالداخل بالفعل، وكانت الشقيقات الثلاث يذرعن أرض المسرح جيئةً وذهوبًا يقرأن أدوارهن من دفاتر في يدهن. وكان ريدكا يقف بمعزل عن الجميع ساكنًا مستندًا إلى ستار المسرح، ينظر بوله إلى خشبة المسرح في انتظار بدء البروفة. كان كل شيء كعهده تمامًا!

تقدمت نحو سيدة المكان، فكان لا بد من أن أحييها، لكن الجميع صمتوا فجأة وأشاروا لي كي أخفف وقع خطواتي. ساد الهدوء ورُفع غطاء البيانو، وكانت هناك سيدة تجلس إليه وقد ضيَّقت عينيها المصابتين بقصر نظر صوب النوتة الموسيقية، واقتربت ماشا العزيزة من البيانو، وقد ارتدت ثوبًا كشف عن جمالها، ولكن تلك المرة كان جمالها جديدًا يجعلها لا تشبه ماشا التي كانت تأتيني في الربيع الماضي عند الطاحونة. غنت ماشا:

- لماذا أحبك يا ليلي المتألق؟

كانت المرة الأولى التي أسمعها فيها تغني منذ أن عرفتها. كانت تتمتع بصوت قوي رائع، وبينما تغني شعرت أني أتناول شمامًا طريًّا حلوًا ذا رائحة فواحة. عندما انتهت صفَّق الحضور، فابتسمت وطرفت عيناها الموجهتان صوب النوتة الموسيقية، وعدَّلت من فستانها، وبدت كطائر تمكن أخيرًا من الإفلات من قفصه، وأخذ يعدل من وضع جناحيه بحرية. كان شعرها مسدلًا خلف أذنيها، وارتسم على وجهها تعبير سيئ مستفز، وكأنها أرادت أن تتحدانا جميعًا، وتصيح فينا كما تصيح في خيلها: «إإيه... يا أفراسي اللطيفة!».

لا بد أنها كانت في تلك اللحظة تشبه تمامًا جدها الحوذي.

مدت لي يدها وهي تسألني:

- أأنت هنا؟ هل استمعت لغنائي؟ ما رأيك؟

وأكملت دون أن تسمع إجابتي:

- من الجيد جدًّا وجودك هنا. سأرحل الليلة إلى سان بطرسبرج لمدة قصيرة. أتسمح لي بذلك؟

رافقتها إلى المحطة عند منتصف الليل. عانقتني بلطف، ربما امتنانًا لي لأني لم أطرح عليها أسئلة لا داعيَ لها. وعدتني أن تكتب لي، وأمسكتُ بيديها مدة طويلة وقبَّلتهما، وعجزت عن كبح جماح دموعي، ولم أنبس لها ببنت شفةٍ.

عندما رحلت وقفت أراقب الأضواء البعيدة ملاطفًا إياها في خيالي قائلًا بهدوء:

- يا ماشتي الحبيبة... ماشا الرائعة!

قضيت تلك الليلة في منزل مربيتي كاربوفنا في ماكاريخ، وفي الصباح عملت مجددًا مع ريدكا في تلميع أثاث أحد التجار الأثرياء كان قد اعتزم تزويج ابنته لأحد الأطباء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



--17

جاءتني شقيقتي يوم الأحد بعد الغداء، وشربت معي الشاي. قالت لي وهي تريني الكتب التي جاءت بها من المكتبة العامة وهي في طريقها لي: - أصبحت أقرأ كثيرًا الآن بفضل زوجتك وفلاديمير، فقد أيقظا بداخلي حب المعرفة. لقد أنقذاني، وجعلاني أشعر أني إنسانة حقًّا. قبل ذلك كنت لا أستطيع النوم في الليالي من الهموم التي تشغلني حينها من قبيل: «آآه، هذا الأسبوع استهلكنا كمية كبيرة من السُّكَّر!» أو «عسى ألا يكون الخيار المخلل زائد الملح». أما الآن فلا يواتيني النوم في الليالي أيضًا، ولكن بسبب أفكار مختلفة. تعذبني فكرة أني أهدرت نصف حياتي في العيش بهذا الجبن وتلك الحماقة. إني أحتقر ماضيَّ، وأشعر بالخجل منه. إني أنظر الآن إلى أبي كما أنظر لعدوي. آآه، كم أنا شاكرة لزوجتك! وفلاديمير! إنه إنسان فاتن. لقد فتحا عينيَّ.

قلت لها:

- إن عدم تمكنك من النوم ليس أمرًا حسنًا.

- أتعتقد أني مريضة؟ لست كذلك على الإطلاق. لقد فحصني فلاديمير وقال إني في حالة ممتازة، ولكن الأمر لا يتعلق بحالتي الصحية، هي ليست بهذه الأهمية... قل لي: أأنا على صواب؟

كان من الواضح أنها في حاجة لدعم معنوي. رحلت ماشا، والطبيب بلاجوفو كان في سان بطرسبرج، ولم يتبقَّ لها في البلدة أحد سوايَ، ليقل لها إنها على صواب. أخذت تحدق في وجهي، محاولة استكشاف كنه أفكاري الخفية، فإن رأتني مستغرقًا في التفكير والصمت في حضورها، شعرت أن ذلك يسيء إليها، وملأ الحزن قلبها. كان عليَّ أن أتخذ حذري طوال الوقت، وعندما كانت تسألني ما إن كانت على حق، كنت أسارع بإجابتها بأنها كذلك، وأني أكنُّ لها احترامًا عميقًا.

تابعت قائلة:

- أتعرف؟ لقد أعطوني دورًا لأتدرب عليه عند آل أجوجين. أريد أن أمثِّل على المسرح. أريد أن أعيش. باختصار: أريد أن أشرب من الكأس حتى الثمالة. لست أتمتع بأي قدر من الموهبة، والدور كله لا يزيد عن عشرة أسطر، ولكن هذا بالنسبة لي أرفع وأنبل بما لا يقاس من صب الشاي خمس مرات في اليوم، ومراقبة الطاهي للتأكد من أنه لا يستهلك أكثر مما يجب. الأهم من كل ذلك أن يدرك والدي أني قادرة على الاحتجاج.

بعدما شربنا الشاي، استلقت على فراشي وأغمضت عينيها قليلًا، وبدا وجهها شديد الشحوب. وعندما نهضت قالت: - يا له من ضعف! كان فلاديمير يقول لي إن كافة نساء البلدة وفتياتها مصابات بفقر الدم بسبب عدم العمل يا له من إنسان ذكي! إنه على حق، إنه على حق تمامًا لا بد من العمل.

وفي غضون يومين ذهبت إلى منزل آل أجوجين من أجل حضور البروفة، وفي يدها دفترها. كانت ترتدي ثوبًا أسودَ، ووضعت حول عنقها عقدًا مرجانيًّا، وعلقت دبوس زينة على ثوبها بدا من بعيد وكأنه فطيرة، وعلقت قرطين كبيرين في أذنيها يتلألآن بالماس. عندما نظرت إليها شعرت بالضيق، فقد أدهشتني قلة ذوقها. لاحظ الآخرون أيضًا أنها تزينت بقرطين ماسيين، وارتدت ثيابًا غريبة. رأيت الابتسامات ترتسم على وجوههم، وقال أحدهم ضاحكًا: - كليوباترا المصرية إذَنْ!

كانت تحاول أن تساير الموضة، وأن تشعر بالراحة والحرية، ولهذا بدت متكلفة وغريبة. لقد هجرتها فتنتها وبساطتها.

استهلت حديثها وهي تقترب مني:

- لقد أخبرت والدي الآن أني ذاهبة لحضور البروفة، فصاح فيَّ قائلًا إنه سيحرمني من بركته، وكاد أن يضربني. هل تتخيل أني لا أعرف دوري؟

هكذا قالت وهي تنظر إلى الدفتر في يدها، ثم قالت باضطراب شديد:

- لا بد وأني سأفشل، ولكن فليكن... هذا نصيبي.. هذا نصيبي!

وبدا لها كما لو أن الجميع ينظرون إليها، وأنهم جميعًا مذهولون من الخطوة الهامة التي قررت أن تخطوها، وأنهم جميعًا ينتظرون منها شيئًا ما على وجه الخصوص، ولم يكن من الممكن إقناعها أن أحدًا لا يأبه لأناس مثلي ومثلها ليس لديهم شأن كبير ولا يهمون الآخرين في شيء لم يكن لها دور حتى الفصل الثالث، وكان من المفترض أن تلعب دور ضيفة نمَّامة جاءت لزيارة امرأة ريفية، ويتلخص الدور في أن تقف عند الباب تنصت السمع، ثم تقول مونولوجًا قصيرًا. استغرقت الفترة التي سبقت صعودها إلى المسرح ساعة ونصفًا على أقل تقدير، ولم تفارقني لحظة بينما كانوا يتحركون على خشبة المسرح ويقرؤون ويغنون ويشربون الشاي ويتجادلون، وظلت طوال الوقت تكرر دورها، وأخذت تجعد الدفتر في يدها، وتتخيل أن الجميع ينظرون إليها، وينتظرون ظهورها على خشبة المسرح، وكانت تسوي من شعرها بيد مرتعشة وقالت لي:

- لا بد وأني سأفشل.... آآه لو تعرف كم أشعر بانقباض في قلبي! إني أشعر الآن بخوف ذاك مَن يسوقونه إلى الإعدام.

أخيرًا حان موعد دورها. قال المخرج:

- كليوباترا ألكسيفنا. هيا!

تقدمت إلى منتصف المسرح، والرعب يرتسم على وجهها الذي بدا بشعًا أخرقَ، وظلت لنصف دقيقة تقريبًا واقفة بلا حركة على الإطلاق وكأنها أصيبت بإغماء تخشبي، لولا حركة القرطين الكبيرين في أذنيها.

قال أحدهم:

- إنها المرة الأولى لكِ، لذا يمكنكِ أن تقرئي دوركِ من دفتركِ.

كان من الواضح لي أنها ترتجف بشدة لدرجة أنها لا يمكنها التحدث أو حتى تفتح دفترها، وأنها عاجزة تمامًا عن القيام بدورها، وهممت بالذهاب لأقول لها شيئًا ما، لكنها تهاوت على ركبتيها وسط المسرح، وانفجرت في البكاء.

ساد الهرج والمرج من حولها، وبقيت أنا وحدي واقفًا في الكواليس مصعوقًا مما حدث، دون أفهم أو أعرف ماذا يتوجب عليَّ أن أفعل. رأيتهم وهم يرفعونها ويبعدونها عن المسرح. رأيت كيف اقتربت مني أنيوتا بلاجوفو، ولم أكن قد شاهدتها في القاعة قبل ذلك، وبدا لي كما لو أنها قد خرجت فجأةً من باطن الأرض. كانت ترتدي قبعةً وبرقعًا وبدا أنها ستمكث لحظة واحدة وتغادر كعادتها دائمًا.

قالت لي بغضب وفظاظة، وكأنها تخرج كل كلمة بشق الأنفس وقد احمر وجهها : - لقد قلت لها ألا تقوم بالدور. هذا جنون! كان عليك أن تمنعها عن ذلك.

وسرعان ما اقتربت أجوجينا الأم، وكانت ترتدي سترة قصيرة ذات أردان قصيرة، وقد علق شيء من رماد السجائر بصدرها، وبدت نحيفة ومبتذلة. قالت لي وهي تفرك يدها بطريقتها المألوفة وتحدق في وجهي: - أمر فظيع يا عزيزي! أمر فظيع! إن شقيقتك في حالة... إنها حبلى. خذها من هنا أرجوك.

كانت تلهث من فرط الانفعال، ووقفت بجانبها البنات الثلاث، وبدين مثلها نحيلات ضعيفات، وقد انكمشن على بعضهن البعض في ذعر. كن مذعورات بشدة، وكأن مجرمًا قد أُلقي القبض عليه لتوه في منزلهن. يا للخزي! كم كان الأمر مريعًا! هذا وقد قضت هذه الأسرة المحترمة عمرها كله في النضال ضد الخرافة! من الواضح أنها كانت تفترض أن خرافات وضلالات الإنسانية تتلخص جميعًا في إيقاد الشموع الثلاث، وفي اليوم الثالث عشر من الشهر، وفي يوم الشؤم؛ يوم الإثنين!

كررت السيدة أجوجينا وقد اتخذت شفتاها شكل قلب وهي تقول:

- أرجووووك. أرجوك أن تأخذها إلى منزلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



بعد ذلك بوهلة كنت أسير مع شقيقتي في الشارع. غطيت تنورتها بمعطفي، وأسرعنا في خطونا، مفضلين السير في الأزقة والشوارع الخلفية حيث لا أضواء ولا مارة، وبدا كما لو أننا نهرب. كفت عن البكاء، وكانت تنظر إليَّ بعينين جافتين. كانت المسافة إلى منزل كاربوفنا في ماكاريخ حيث اصطحبتها إلى هناك لا تتجاوز العشرين دقيقة، والغريب أن في هذه المدة القصيرة فكرنا في حياتنا كلها، وتحدثنا معًا في كل شيء وفحصنا وضعنا وأخذنا نتأمل.

قررنا أنه من المستحيل أن نقيم بعد ذلك في هذه البلدة، وأني عندما أربح القليل من المال سوف ننتقل إلى مكان آخر. كانت بعض المنازل قد غطَّ أصحابها في النوم، وفي البعض الآخر كانوا يلعبون الورق. كرهنا هذه المنازل وخفنا منها، وتحدثنا عن تعصب وتفاهة وفظاظة هذه الأسرة المحترمة، محبي الفن المسرحي التي أوقعنا الخوف في قلوبها، وتساءلت: بأي شيء يتميز هؤلاء الحمقى القساة الكسالى الأشرار عن فلاحي كوريلوفكا السكارى المؤمنين بالخرافات؟ وما الذي يميزهم عن الحيوانات التي يصيبها الذعر عندما يحدث شيء ما يعكر رتابة نمط حياتهم التي تحددها غرائزهم كاملًا؟ ما الذي كان يمكن أن يحدث لشقيقتي الآن لو ظلت في هذا المنزل؟ أي عذابات معنوية كانت ستعاني منها عندما تتحدث مع أبي وتلتقي كل يوم بمعارفه؟ تخيلت ذلك، وتذكرت أولئك الناس؛ كافة المعارف الذين أعرفهم الذين أهلكهم أقرباؤهم ومعارفهم وفرضوا عليهم موتًا بطيئًا، وتذكرت تلك الكلاب التي جُنَّت، والعصافير التي نتف الصبية ريشها طويلًا ثم ألقوا بها في الماء. تذكرت تلك السلسلة الطويلة؛ البالغة الطول من ضروب المعاناة البطيئة البكماء التي رأيتها منذ أول طفولتي في تلك البلدة، ولم أعد أفهم لماذا يعيش هؤلاء الستون ألف نسمة، ولماذا يقرؤون الإنجيل، ولماذا يصلون ولماذا يقرؤون الكتب والمجلات؟ ما الفائدة التي جنوها من كل ما قيل وكتب حتى الآن طالما أنهم يعيشون في تلك العتمة الخانقة ذاتها، ويكرهون الحرية إلى هذا الحد، مثلما كان الأمر منذ ثلاثمائة عام مضت؟ يقضي المقاول النجار حياته يُشيِّد بيوتًا في البلدة، وحتى اللحظة الأخيرة من حياته يظل يقول «وراق» بدلًا من «رواق»، وهكذا قرأ هؤلاء الستون ألف طوال أجيال وسمعوا عن الحقيقة وعن الرحمة والحرية، ومع ذلك فهم يكذبون طوال اليوم ويعذبون بعضهم، ويخشون من الحرية ويكرهونها كأعتى أعدائهم.

قالت شقيقتي عندما وصلنا المنزل:

- هكذا تقرر مستقبلي. لا يمكنني أن أعود إلى هناك بعدما حدث. إني أشعر بالراحة الآن.

ومضت للفراش، والدموع تلمع فوق جفنيها، ولكن التعبير المرتسم على وجهها كان يشي بالسرور، ونامت نومًا عميقًا هانئًا، وكان من الواضح أن الحزن قد فارق قلبها وأنها قد استراحت. لقد مر وقت طويل، طويل جدًّا منذ أن نامت مطمئنة بهذه الطريقة.

وعشنا معًا. كانت تغني طوال الوقت وتقول لي إنها في أفضل حال، وأعادت الكتب التي أتت بها من المكتبة دون أن تقرأها، فلم تعد تستطيع القراءة، وقد أرادت ألا تفعل شيئًا سوى الاستغراق في الأحلام والحديث عن المستقبل. كانت ترفو ثيابي الداخلية أو تساعد كاربوفنا عند الموقد، وتبدأ في الغناء وتتحدث عن فلاديميرها العزيز، وعن ذكائه وأخلاقه الرائعة وثقافته الرهيبة، وكنت أوافقها مع أني لا أحب هذا الطبيب. أرادت أن تعمل وتعيش حياة مستقلة وتنفق على نفسها، وكانت تقول إنها ستعمل مُدرِّسة أو ممرضة فور أن تستعيد صحتها، وإنها ستقوم بنفسها بغسل الصحون وغسل الثياب وتنظيف الأرض. بدأت بالفعل في الشعور بحب غامر تجاه ابنها الصغير القادم. صحيح أنه لم يأتِ للعالم بعد، لكنها عرفت بالفعل لون عينيه، وشكل يديه وطبيعة ضحكته. كانت تحب التحدث عن التربية. ولأنها كانت ترى أن فلاديمير هو أفضل إنسان في العالم، انصبت كافة أفكارها عن التربية على أمر واحد فقط؛ ألا وهو الطريقة التي يمكن للصبي أن يصبح بها فاتنًا كأبيه لم يكن ثمة نهاية لحديثها، وكان كل ما تقوله يبعث فيها بهجة حقيقية أحيانًا ما كنت أستشعر أنا أيضًا البهجة دون سبب واضح.

لا بد وأني قد أصبت بعدوى استغراقها في الأحلام. لم أعد أقرأ شيئًا أنا أيضًا، وفي أوقات الليل، بالرغم من الإنهاك الذي كنت أشعر به، كنت أذرع الغرفة جيئة وذهوبًا واضعًا يديَّ في جيوبي، متحدثًا عن ماشا. كنت أسأل شقيقتي:

- بظنكِ متى ستعود؟ أعتقد أنها سوف تعود في عيد الميلاد على أقصى تقدير. تُرى ماذا تفعل هناك؟

- طالما أنها لا تكتب لكِ، فلا بد وأنها ستعود سريعًا.

- صحيح.

وافقتها، مع أني كنت أعرف في قلبي أن ماشا لن تعود إلى البلدة.

كنت شديد الاشتياق إليها، ولم أعد قادرًا على خداع نفسي، لذا كنت أدفع الآخرين كي يخدعوني كانت شقيقتي في انتظار طبيبها العزيز، وأنا في انتظار ماشا، وكلانا لا يتوقف عن الحديث والضحك، دون أن ننتبه إلى أننا نزعج نوم كاربوفنا التي كانت تضطجع على الموقد، وتتمتم قائلة:

- لقد طن السماور هذا الصباح. آآه... إن هذا نذير سيئ يا أحبائي.. نذير سيئ.

لم يأتِ أحد قط للمنزل سوى ساعي البريد حاملًا خطابات من الطبيب لشقيقتي، وبروكوفي الذي كان يعرج علينا أحيانًا في المساء وينظر في صمت إلى شقيقتي، ويغادر، وما إن يدخل المطبخ حتى يقول:

- لا بد على كل طبقة أن تعرف قواعدها، ومن لا يفهم ذلك بسبب غروره سينتهي به الأمر إلى وادي الدموع.

كان يحب التلفظ بعبارة: «وادي الدموع». ذات يوم، وكان ذلك في عطلة عيد الميلاد، وكنت في السوق، ناداني كي أدخل إلى جزارته، قال لي دون أن يصافحني إنه يود التحدث معي عن أمر شديد الأهمية. كان وجهه قد احمرّ بفعل الصقيع والفودكا، وبالقرب منه، خلف المنضدة، وقف نيكولكا بوجه يشبه أوجه قطاع الطرق، ممسكًا بيده سكينًا ملطخًا بالدماء.

استهل بروكوفي حديثه قائلًا:

- أود أن أحدثك بصراحة. لا يمكن أن يستمر هذا الوضع، فأنت تعرف جيدًا أن الناس هنا في وادي الدموع لن يمتدحوك ولن يمتدحونا إن أمي بالطبع لا يمكنها أن تقول لك شيئًا يسوءك بدافع من شفقتها، وأقصد أنها لا يمكنها أن تخبرك أن شقيقتك لا بد وأن تنتقل إلى شقة أخرى بسبب حالتها، وأنا لم أعد أستطيع أن أوافق على سلوكها.

فهمت مقصده وغادرت جزارته. في اليوم نفسه انتقلت أنا وشقيقتي إلى شقة ريدكا. لم يكن لدينا مال لاستئجار عربة، فسرنا على قدمينا. حملت على ظهري صرة تحوي أغراضنا، بينما لم تحمل شقيقتي شيئًا، لكنها أخذت تلهث وتسعل وتسألني طوال الوقت ما إن كنا قد اقتربنا أم لا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



-19-

أخيرًا جاءني خطاب من ماشا. كان الخطاب يقول:

عزيزي الجميل م. أ، يا ملاكي الطيب الرقيق، كما كان يدعوك الدهَّان القديم، وداعًا. سوف أرحل مع أبي إلى أمريكا لحضور أحد المعارض هناك. بعد عدة أيام سأرى المحيط، وسأكون بعيدة عن دوبيتشنيا إلى درجة يرعبني التفكير فيها. إنه بعد لا يُدرك كالسماء، ولدي رغبة شديدة في الذهاب إلى هناك والتمتع بالحرية. أنا مبتهجة، وأوشكت على الجنون، وبإمكانك أن ترى كم يبدو خطابي أحمقَ. يا عزيزي الطيب، أرجوك أعطني حريتي. أسرع ومزِّق الخيط الذي لا يزال يربط بيننا. لقد كان لقائي ومعرفتي بك بمثابة شعاع من السماء أضاء وجودي كله، ولكن زواجي منك كان خطأً، وأنت تدرك ذلك، وإني الآن أرزح تحت عبء وعيي بهذا الخطأ، وإني أتوسل إليك جاثية على ركبتي يا صديقي العطوف أن تسرع بأقصى ما يمكنك من سرعة قبل أن أدخل إلى عباب المحيط، وترسل لي موافقتك على تصحيح خطئنا المشترك، وتلقي بهذا الحجر الوحيد الذي يثقل كاهل جناحيَّ، وقد وعدني أبي الذي سيتولى القيام بكافة الإجراءات، ألا يرهقك كثيرًا بالإجراءات الرسمية. هل سأصبح حرة في الطيران إلى كافة الاتجاهات؟ أتوافق؟

عسى أن تنعم بالسعادة، وليباركك اللّه. سامحني أنا المخطئة.

إنني في حالة صحية جيدة. أبدد المال وأرتكب الكثير من الحماقات، وفي كل دقيقة أشكر اللّه أنه لم يرزق امرأة سيئة مثلي بأطفال. إني أغني وألقى نجاحًا، ولكن هذا ليس لشغفي بالغناء، بل إنه بمثابة العمود الذي أرتكز عليه، دائرة الأمان التي ألتمس فيها الراحة. كان للملك داود خاتم منقوش عليه: «كل شيء يزول». عندما يشعر بالحزن كانت هذه الكلمات تبهجه، وعندما يشعر بالفرح، كانت هذه الكلمات تبعث في قلبه الحزن. لديَّ أنا أيضًا خاتم منقوشة عليه كلمات بحروف عبرية، وهذا الطلسم يحفظني من أن تجرفني العاطفة. كل شيء يزول، والحياة تمر، وهذا يعني أننا لسنا في حاجة لشيء أو أننا لسنا في حاجة إلا لوعينا بالحرية، لذا عندما يكون الإنسان حرًّا، لا يعود في حاجة لأي شيء على الإطلاق مزِّق هذا الخيط أحتضنك بقوة أنت وشقيقتك. اغفر لماشتك العزيزة وانسها».

كانت شقيقتي تستلقي في إحدى الغرف، بينما كان ريدكا يستلقي في غرفة أخرى، وقد عاوده المرض من جديد، لكنه تعافى منه مرة أخرى. في اللحظة التي تلقيت فيها الخطاب مضت شقيقتي بهدوء إليه وهو يدهن، وجلست بجانبه، وأخذت تقرأ له. كانت تقرأ عليه كل يوم شيئًا من أوستروفسكي، أو

جوجول، وكان يستمع إليها ويُحدِّق في الاتجاه نفسه، ولا يضحك، بل يهز رأسه، ويتمتم بين الحين والآخر لنفسه قائلًا:

- كل شيء وارد. كل شيء وارد!

وإن كانت المسرحية تصف شيئًا ما غير جميل، شديد القبح، فكان يتحدث وكأنه يقحم إصبعه بالكتاب انتقامًا:

- ها هو! ها هو الكذب! هذا ما يفعله الكذب! الكذب!

كانت المسرحيات تجذبه جدًّا سواء بمضمونها أو مغزاها، أو ببنائها الفني المعقد، وعندما يود التحدث عن مؤلفها لا يذكر اسمه فيقول مثلًا:

- كم هو بارع في وضع كل شيء في المسرحية في مكانه الصحيح!

هذه المرة قرأت شقيقتي صفحة واحدة بهدوء، ولم تستطع أن تواصل. خانتها قوتها. أمسك بها ريدكا من ذراعها وحرَّك شفتيه الجافتين وقال بهمس لا يكاد يسمع:

- إن نفس الإنسان الصالح بيضاء ناعمة كالطباشير، أما المخطئ فكحجر الخفّاف. نفس الإنسان الصالح كالزيت الصافي، أم المخطئ فكالقطران. علينا أن نكدح ونحزن ونمرض...

وسكت هنيهة ثم أكمل قائلًا:

- كل مَن لا يعمل ولا يحزن لن يدخل ملكوت السماوات. الويل، الويل للمتخمين والأقوياء. الويل للأثرياء والمرابين. لن يدخلوا ملكوت السماوات. الحشرات تفسد العشب، والصدأ يفسد الحديد.

وأضافت شقيقتي مبتسمة:

- والكذب يفسد الروح.

أعدت قراءة الرسالة ثانيةً. في هذه اللحظة جاء جندي إلى المطبخ، كان يأتينا مرتين في الأسبوع حاملًا إلينا من مصدر مجهول شايًا وأرغفة فرنسية وطيورًا تفوح منها الروائح. لم يكن لديَّ عمل أقوم به، فكنت أجلس في المنزل أيامًا كاملة دون عمل، وربما ذاك الذي يرسل إلينا هذا الخبز يعرف جيدًا أننا في عوز.

سمعتُ شقيقتي تتحدث مع الجندي وتضحك بسرور. ثم استلقت وأكلت بعضًا من الخبز الفرنسي، وقالت لي:

- حينما لم ترد أن تستمر في وظيفتك، ورحلت لتعمل دهانًا، أدركنا من البداية أنا وأنيوتا بلاجوفو أنك على حق، لكننا خشينا أن نقول ذلك علنًا قُل لي، ما القوة التي تمنع الإنسان من التصريح بما يعتقده فعلًا؟ خذ أنيوتا بلاجوفو مثلًا، إنها تحبك، بل إنها تعبدك، وتعلم أنك على حق، وهي تحبني حب المرأة لشقيقتها، وتعلم أني على حق، بل إنها تحسدني في قرارة قلبها، ولكن هناك قوة ما تمنعها من القدوم إلينا، فهي تتهرب منا وتخشانا.

وضمت شقيقتي يديها إلى صدرها، وقالت بانفعال:

- آآه لو تعرف كم تحبك! لقد اعترفت لي أنا وحدي بهذا الحب، وقد اعترفت لي في صمت تحت جناح الظلام. لقد اصطحبتني إلى ممر معتم بالحديقة، وبدأت تهمس لي وتحدثني عن مكانتك الغالية في قلبها. سوف ترى أنها لن تتزوج أبدًا لأنها تحبك. أتشعر بالأسف عليها؟

- نعم.

- هي مَن أرسلت إلينا الخبز. إنها مضحكة حقًّا. ما الفائدة من الكتمان؟ أنا أيضًا كنت سخيفة حمقاء، لكنني تخطيت تلك المرحلة ولم أعد أخشى أحدًا، وأقول ما أفكر فيه جهارًا، وهكذا أصبحت سعيدة. عندماط كنت أعيش في بيت أبي لم تكن لديَّ فكرة عن السعادة، أما الآن فأشعر أني ملكة متوجة وعاد الطبيب بلاجوفو حصل على شهادته الطبية، وهو يعيش الآن في بلدتنا مع أبيه لقد أراد أن ينعم ببعض الراحة، وقال إنه سرعان ما سوف يعود مجددًا إلى سان بطرسبرج. كان يريد دراسة التلقيح ضد التيفوس والكوليرا على ما أعتقد. أراد أيضًا أن يسافر خارج روسيا حتى يُكمل دراسته، بحيث يعود إلى هنا ليعمل بمنصب أستاذ مرموق. لقد ترك بالفعل الخدمة العسكرية، وهو يرتدي الآن سترة صوفية واسعة، وسروالًا واسعًا للغاية ورابطات عنق رائعة. كانت شقيقتي تشعر بالافتتان من دبوس الزينة الذي يعلقه على سترته والأزرار التي تزين قميصه، والمنديل الحريري الأحمر الذي يتركه معلقًا بتدلل في جيب سترته ذات يوم، ولم يكن لدينا ما نفعله، أخذنا نحصي كافة البذلات التي شاهدناه يرتديها، وقدَّرنا أنها عشرٌ على أقل تقدير كان من الواضح أنه لا يزال يحب شقيقتي كما كان من قبل، لكنه لم يذكر مرة واحدة، ولا على سبيل المزاح، أنه يود اصطحابها معه إلى سان بطرسبرج، أو إلى خارج البلاد، ولم أكن أستطيع تخيل ما الذي يمكن أن يحدث معها إن ظلت على قيد الحياة، وما الذي سيحل بطفلها أما هي فكانت تستغرق في أحلامها بلا نهاية، ولا تفكر في المستقبل بجدية كانت تقول إنه يمكنه الذهاب حيثما يشاء، وإنه حر إن أراد أن يهجرها المهم أن يكون سعيدًا، وإن ذلك يكفيها.

كان من عادته عندما يأتي إلينا أن يفحصها جيدًا، ويصر على أن تشرب اللبن في حضوره. هذا ما فعله تلك المرة أيضًا. فحصها وأجبرها على شرب كأس من اللبن، وفاحت بعد ذلك في غرفنا رائحة كريوزوت ([19]). قال وهو يتناول منها الكأس:

- أنتِ ذكية. عليكِ ألا تتحدثي كثيرًا. لقد اعتدتِ الثرثرة في الفترة الأخيرة طوال الوقت. أرجوكِ أن تتحلّي بالصمت.

ضحكتْ، ثم دخل الطبيب حجرة ريدكا حيث كنت جالسًا، وربت على كتفي بمودة. انحنى للمريض وسأله:

- حسنًا، كيف حالك أيها الكهل؟

تمتم ريدكا محركًا شفتيه بهدوء قائلًا:

- يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة، سوف أجرؤ على القول إننا جميعًا نسير بنعمة اللّه. الجميع سوف يموتون. اسمح لي أن أقول الحقيقة: يا صاحب السعادة، إنك لن ترى ملكوت السماوات.

فقال الطبيب مازحًا:

- وما العمل؟ لا بد وأن يذهب أحدهم للجحيم.

وفجأة أصاب شيء ما وعيي. شعرت كأني أحلم أني واقف في ليلة شتوية في ساحة السلخانة، وبروكوفي واقف بجانبي، تفوح منه رائحة براندي الفلفل. بذلت جهدي وفركت عيني، وبدا لي أني ذاهب إلى المحافظ. لم يحدث لي شيء كهذا من قبل، فعزوت هذه الذكريات الغريبة التي تراودني وكأنها أحلام إلى حالة أعصابي المنهكة. لقد عشت ثانيةً مشاهد السلخانة ولقائي بالمحافظ، وفي الوقت نفسه كنت أدرك بشكل غامض في قرارة نفسي أن هذا ليس حقيقيًّا.

عندما أفقت لنفسي، وجدت نفسي خارج المنزل. كنت في الشارع أقف مع الطبيب عند أحد مصابيح الشارع. قال لي والدمع يترقرق على وجنتيه:

- يا للحزن! يا للحزن! إنها سعيدة، تضحك طوال الوقت، ومليئة بالآمال، ولكن حالتها ميؤوس منها يا عزيزي. إن صاحبك ريدكا يكرهني ويحاول أن يجعلني أشعر دائمًا أني ظلمتها. إنه على حق من وجهة نظره، لكني لديَّ أنا أيضًا وجهة نظر، ولن أندم أبدًا على ما حدث لا بد للمرء من الحب لا بد لنا جميعًا من الحب أليس كذلك؟ لا حياة دون حب، وذاك الذي يخشى الحب ويتهرب منه، ليس حرًّا.

وتدريجيًّا انتقل بالحديث إلى موضوعات أخرى، فتحدث عن العلم وعن أطروحته الطبية التي لاقت الإعجاب في سان بطرسبرج. كان يتحدث بانفعال، ولم يعد يفكر لا في شقيقتي ولا في حزنها، ولا فيَّ. كانت الحياة تخلب لبه. قلت في نفسي إن ماشا مشغولة بأمريكا والخاتم ذي النقش، أما هذا الطبيب فمشغول بطريقه المهني وشهادته الطبية، في حين أني بقيت أنا وشقيقتي مع كل ما هو عتيق.

ودَّعته واقتربت من مصباح الشارع وأعدت قراءة رسالتها مرة أخرى. تذكرت بحيوية شديدة كيف جاءتني في ذلك الصباح الربيعي إلى الطاحونة، واستلقت على الأرض وتدثرت بمعطفها، وقد أرادت أن تكون مثل فلاحة بسيطة. وتذكرت ما حدث في يوم آخر، وكان صباحًا أيضًا، وكيف سحبنا الشبكة من الماء، وتساقطت علينا قطرات المطر الكبيرة وضحكنا معًا.

كان الظلام يخيم على منزلنا بشارع دفوريانسكي الكبير. وثبتُ من فوق السياج، وكما كنت أفعل في الماضي سلكت الطريق الخلفي المظلم إلى المطبخ حتى آتي بمصباح. لم يكن هناك أحد في المطبخ، والسماور يئز بالقرب من الموقد في انتظار أبي. قلت في نفسي: «من يصب الشاي لأبي الآن؟». أخذت المصباح، ومضيت إلى الكوخ، وصنعت لنفسي فراشًا هناك من المجلات القديمة واستلقيت. بدت الكلاليب على الجدران بشعة كما كانت من قبل، وكانت ظلالها ترتعش. كان الجو باردًا. بدا الأمر كما لو أن شقيقتي ستجلب لي العشاء حالًا، لكنني سرعان ما تذكرت أنها مريضة، راقدة على الفراش في منزل ريدكا، وشعرت بالغرابة من قفزي فوق السياج لأستلقي في هذا الكوخ البارد، عاد إليَّ وعيي، وشعرت بحماقة ما فعلت، رن الجرس، إنه رنين أعرفه منذ الطفولة، في البداية حركة السلك المعدني على الحائط، ثم رنة قصيرة حزينة في المطبخ لقد عاد أبي من النادي نهضت من مكاني وتوجهت إلى المطبخ. ما إن رأتني الطاهية أكسينيا، حتى شبكت يديها معًا لسبب ما، واستغرقت في البكاء. قالت لي بحنان:

- يا عزيزي... آآه أيها الغالي، يا إلهي!

ومن فرط اضطرابها أخذت تجعد مئزرتها بيديها. كانت هناك أربع زجاجات من الفودكا وعصير التوت قائمة على النافذة. صببت لنفسي ملء فنجان شاي، وشربت بنهم، فقد كنت شديد الظمأ. كانت أكسينيا قد نظفت لتوها الطاولة والمقاعد، وفاحت من المطبخ تلك الرائحة التي تفوح من المطابخ الزاهية المريحة القائم على أمرها طهاة محترفون. كانت تلك الرائحة وعرير الصراصير هما ما يجذباننا أثناء الطفولة للاستماع للحكايات الخرافية وللعب لعبة الملوك...

سألتني أكسينيا بسرعة، وقد تقلص وجهها وتقطعت أنفاسها:

- ولكن أين كليوباترا؟ وأين قبعتك يا عزيزي؟ وهل صحيح أن زوجتك رحلت فعلًا إلى سان بطرسبرج؟

كانت تعمل خادمة عندنا منذ أيام والدتي، وكانت في وقت ما تحممني أنا وكليوباترا، ونحن لا نزال في عينيها حتى الآن طفلين يجدر إسداء النصح إليهما. وظلت لحوالي ربع ساعة تعرض عليَّ كل أفكارها وتأملاتها تلك أخذت تجمعها بحكمة الخادم القديمة طوال أعوام في هذا المطبخ منذ أن عرفنا بعضنا البعض. قالت إنه من الممكن إجبار الطبيب على الزواج من كليوباترا، وذلك بتخويفه، وإنه إن كان قد لجأ للأسقف في الوقت المناسب لتمكَّن من إبطال زواجه الأول، وقالت أيضًا إنه من المستحسن أن أبيع ضيعة دوبيتشنيا دون أن أعلِم زوجتي، وأن أضع المال في المصرف باسمي، وإني إذا جئت أنا وشقيقتي وانحنينا عند قدمي أبينا وطلبنا عفوه، فربما يغفر لنا، وإن علينا أن نقيم قداسًا باسم العذراء ملكة السماء...

حين سمعت صوت سعال أبي قالت:

- اذهب إليه يا عزيزي وتحدث إليه. انحنِ أمامه. الانحناء لن يخلع رأسك من مكانها.

ومضيت إليه. كان أبي جالسًا إلى الطاولة، يعمل على تصميم أولي لمنزل صيفي ذي نوافذ قوطية وبرج بدين يشبه أبراج مراقبة الإطفائيين. كان التصميم بشكل عام عاديًّا جدًّا، ولا يفصح عن أي موهبة. ما إن دخلت المكتب ووقفت ساكتًا، حتى كان بإمكاني رؤية التصميم. إني لا أعرف لماذا جئت لأبي، لكنني أتذكر أني فور أن رأيت وجهه الهزيل، وعنقه القرمزي، وظله على الحائط، حتى استبدت بي الرغبة في أن ألقي بنفسي على عنقه كما أوصتني أكسينيا وأركع عند قدميه. ولكن رؤية المنزل الصيفي ذي النوافذ القوطية جعلتني أمسك عن فعل ذلك. قلت:

- مساء الخير.

ألقى عليَّ نظرة، ثم عاد لتصميمه سريعًا. سألني بعد برهة قصيرة:

- ماذا تريد؟

قلت بصوت مكتوم:

- جئت إليك لأخبرك أن شقيقتي مريضة جدًّا. إنها سوف تقضي نحبها سريعًا.

تنهد أبي وقال وهو يخلع نظارته ويضعها أمامه على الطاولة:

- حسنًا، ما تزرعْهُ، تحصدْهُ.

ونهض من على الطاولة وهو يكرر:

- ما تزرعْهُ، تحصدْهُ. أريدك أن تذكر كيف جئتني هنا منذ عامين في نفس المكان، وكيف توسلت إليك حينها أن تترك أوهامك، وذكَّرتك بواجبك وشرفك وبما تدين به تجاه أسلافك الذين يجب أن نصون تقاليدهم المقدسة. فهل أطعتني؟ لقد تجاهلت نصائحي، وتمسكت بعناد بآرائك الخاطئة، والأسوأ من ذلك أنك جررت شقيقتك معك إلى أوهامك وشجعتها على أن تفقد أخلاقها وخجلها. الآن كلاكما في حالة سيئة. حسنًا، ما تزرعْهُ، تحصدْهُ.

قال هذا وهو يذرع أنحاء مكتبه جيئةً وذهوبًا. من المحتمل أنه ظن أني جئته اعترافًا بذنبي، وربما كان ينتظر أن أطلب صفحه عني وعن شقيقتي. شعرت بالبرد، وكان جسدي يرتعش كما لو أني محموم، فقلت بصعوبة بصوت أجش:

- وأريدك كذلك أن تتذكر أني في هذا المكان أيضًا توسلت إليك أن تفهمني، وأن تفكر وتقرر معي كيف ينبغي أن نعيش وما الغرض من حياتنا، بينما أجبتني بالتحدث عن الأسلاف وجدي الذي كان ينظم القصائد. ها أنا أخبرك الآن أن ابنتك الوحيدة في حالة ميؤوس منها، بينما تعيد حديثك عن الأسلاف والتقاليد. كيف يمكنك السلوك بهذا الطيش في عمر متقدم كعمرك، حينما يكون الموت رابضًا على الباب، ولم تتبقَّ لك في الحياة سوى فترة تتراوح بين خمسة وعشرة أعوام؟!

سألني أبي بحزم، وقد اتضح شعوره بالإساءة لإشارتي إلى طيشه:

- لماذا جئت؟

- لا أعرف أنا أحبك يا أبي، وأشعر بأسف لا يمكنني التعبير عنه أننا ابتعدنا عن بعضنا البعض بهذه الطريقة وها أنا قد جئتك إني لا أزال أحبك، لكن شقيقتي مزقت تمامًا ما يربطها بك إنها غير قادرة على الصفح عنك، ولن تفعل ذلك أبدًا. مجرد ذكر اسمك أمامها يثير فيها الشعور بالتقزز من الماضي ومن الحياة.

فصاح أبي:

- ومن الملوم في ذلك؟ أنت المذنب أيها الوغد!

- حتى إن كنت أنا المذنب... أعترف أني أخطأت في الكثير من الأمور، ولكن لماذا تبدو حياتك هذه التي تريد أن تلزمنا بها مملة وكئيبة وتفتقر إلى الإبداع إلى هذا الحد؟ لماذا لا يسكن هذه البيوت التي تبنيها منذ ثلاثين عامًا أناس يمكنني أن أتعلم منهم كيف يتوجب عليَّ أن أعيش حتى لا أصبح مذنبًا؟ إني

لم أرَ في هذه البلدة بأكملها رجلًا واحدًا صالحًا. إن بيوتك هذه التي تبنيها أوكار لعينة يُحجب فيها الضوء عن الأمهات والبنات، ويُعذَّب فيها الأطفال.

وأضفت بيأس بعد هنيهة:

- آآه يا أمي المسكينة! آآه يا شقيقتي المسكينة! إن المرء في حاجة إلى أن يخدر نفسه بالفودكا ولعب الورق والنميمة... لا بد وأن يتصف بوضاعة ويحترف الرياء، أو ينهمك تمامًا في وضع التصميمات طوال أعوام وأعوام حتى يمكنه أن يغفل عن كل هذا الهلع الكامن داخل تلك البيوت. إن مدينتنا موجودة منذ مئات السنين، وطوال هذه الأعوام لم تنجب إنسانًا واحدًا قد قدَّم نفعًا لغيره، ولا واحدًا! لقد خنقتم في المهد كل ما هو حي وناصع. إنها بلدة أصحاب المتاجر والحانات والموظفين والمرائين والتافهين. إنها بلدة لا نفع منها ولا يمكن أن يأسف عليها إنسان واحد إن تلاشت فجأة وواراها التراب.

قال أبي وهو يتناول مسطرته من على الطاولة:

- إني لا أريد سماعك أيها الوغد أنت ثمل! حذارِ أن تأتي إلى والدك ثانيةً وأنت في هذا الحال أقولها لك للمرة الأخيرة، وبلِّغ ذلك لشقيقتك المنحلة: لن ترثا عني شيئًا لقد سلختُ ولديَّ العاصيين عن قلبي، وإن عانا جراء تمردهما وعنادهما، لن أشعر بالشفقة عليهما. يمكنك الآن أن تعود من حيث أتيت. لقد سر اللّه أن يعاقبني بكما، لكني سأحتمل هذه التجربة بإذعان مثل أيوب، وسأجد عزائي في المعاناة والعمل المستمر. لا تطأ عتبة هذا المنزل ثانيةً طالما لم تُقوِّم طريقك أنا رجل عادل، كل ما قلته لك هو لنفعك، فإن أردت الخير لنفسك عليك أن تتذكر طوال حياتك ما قلته لك وما أقوله الآن.

أشحت بذراعي بيأس وخرجت لا أذكر ماذا حدث ليلتها واليوم التالي.

يقولون إني أخذت أطوف الشوارع حاسر الرأس، مترنحًا، أغني بصوت عالٍ، وزمرة من الصبية تعدو من خلفي صائحة:

- أفضل من لا شيء! أفضل من لا شيء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



-20-

إن كنت قد أردت أن أتخذ لنفسي خاتمًا، لاخترت خاتمًا منقوش عليه: «لا شيء يزول»، فأنا أعتقد أن لا شيء يزول إلا ويترك أثرًا، وأن كل خطوة صغيرة نتخذها تؤثر على حياتنا الحاضرة وعلى المستقبل.

ما مررت به لم يمضِ هباءً. فضروب البلاء التي حلت بي، واحتمالي لها مست قلوب الناس، فلم يعودوا يطلقون عليَّ: «أفضل من لا شيء!» ولا يسخرون مني، وعندما أمر بالقرب من دكاكينهم لا يصبون الماء عليَّ. لقد تعودوا على عملي كعامل، ولم يعودوا يستغربون من منظري وأنا أحمل دلو الطلاء أو أصلح بعض النوافذ بالرغم من أصلي النبيل، بل على العكس من ذلك، صاروا يفضلون أن يعهدوا إليَّ بالعمل، وأصبحت بالنسبة لهم عاملًا محترفًا وأفضل مقاول بعد ريدكا، الذي بالرغم من تعافيه من مرضه ودهانه للقبب والأبراج من دون سقالات، لكنه لم يعد قادرًا على ضبط العمال، فأصبحت أنا الذي أطوف البلدة بدلًا منه بحثًا عن العمل، وأتعاقد مع العمال وأتولى دفع أجورهم، وأقترض المال بالربا الفاحش. ولأني أصبحت الآن مقاولًا أدركت كيف يمكن أن أطوف البلدة لثلاثة أيام بحثًا عن عمال لمهمة تافهة مثل بناء سطح. أصبح الناس يعاملونني باحترام ويخاطبونني بأدب، ويقدمون لي الشاي في البيوت التي أعمل بها ويعرضون عليَّ تناول الغداء لديهم. أما الفتية والفتيات فكثيرًا ما كانوا يأتونني لكي ينظروا إليَّ بفضول وأسف.

ذات يوم كنت أعمل في حديقة المحافظ، وأدهن جناحًا هناك بلون الرخام. كان المحافظ يتجول في الحديقة وعرج على الجناح، وإذ لم يكن لديه ما يفعله، تحدث معي وذكَّرته كيف دعاني إليه من قبل، فأخذ يحدق في وجهي لبرهة ثم فتح فمه على شكل حرف O، وأشاح بذراعيه قائلًا:

- لا أذكر ذلك!

هرمت وأصبحت صموتًا متجهم الوجه، صارمًا، نادرًا ما أضحك، ويُقال إني أصبحت أشبه ريدكا، وإني أثقل على رفاقي في العمل بملاحظات تافهة لا تفيد، مثلما كان يفعل ريدكا.

بالنسبة لماريا فيكتوروفنا، زوجتي السابقة، فتعيش الآن خارج الحدود، وأبوها المهندس يشيد طريقًا في مكان ما بالولايات الشرقية، ويشتري هناك الضيعات. الطبيب بلاجوفو هو أيضًا خارج البلاد، وعادت دوبيتشنيا إلى ملكية السيدة تشيبراكوفا ثانيةً، فقد اشترتها بعد أن ساومت المهندس على تخفيض السعر بنسبة 20 %. يرتدي موسى قبعة مستديرة، وكثيرًا ما يذهب للبلدة للقيام بعمل ما، ويتوقف هناك بالقرب من المصرف. يُقال إنه قد اشترى

ضيعة مرهونة، وإنه دائمًا ما يسأل في المصرف بخصوص دوبيتشنيا التي ينتوي شراءَها هي أيضًا. أما إيفان تشيبراكوف البائس فيتسكع طويلًا في المدينة، ولا يفعل شيئًا سوى معاقرة الخمر. حاولت أن أجعله يعمل معي، وعمل معنا فعلًا بالطلاء وإصلاح النوافذ لفترة، وأحب العمل، لكنه سرق الزيت وطلب بقشيشًا كما يفعل الدهَّان المحترف، وعاود معاقرة الخمر حتى الثمالة. وسريعًا ما ملَّ العمل وعاد لدوبيتشنيا. اعترف لي الرفاق في العمل بعدها أنه حاول إقناعهم أن يرافقوه ذات ليلة كي يقتلوا موسى ويسرقون أموال السيدة تشيبراكوفا.

هرم أبي بشدة، واحدودب ظهره، وكان يتجول في الليالي بالقرب من المنزل، ولم أذهب إليه أبدًا.

إبان الفترة التي اجتاحت فيها الكوليرا المنطقة، عالج بروكوفي أصحاب المتاجر ببراندي الفلفل والراتنج ([20]) لقاء بعض المال، وكما عرفتُ من صحفنا، فقد ضربوه بالعصي عقابًا له على سبه للأطباء وهو في جزارته. مات نيكولا العامل لديه في الجزارة من الكوليرا. أما كاربوفنا فلا تزال على قيد الحياة، ولا تزال تحب ابنها بروكوفي وتخشاه. لا تراني إلا وتهز رأسها بحزن في كل مرة وتتنهد قائلة:

- لقد أفسدت حياتك!

أعمل في الأيام العادية من الصباح حتى المساء، وفي أيام الأعياد، عندما يكون الطقس جيدًا أصطحب ابنة شقيقتي الصغيرة، رغم أن شقيقتي قد اعتقدت أنها سترزق بصبي، لكن المولود كان أنثى، ونتمشى ببطء إلى المقابر. أقف هناك أو أجلس طويلًا أمام القبر الأثير لديَّ وأقول للطفلة إن أمها راقدة هناك.

أحيانًا كنت ألتقي بأنويتا بلاجوفو في المقابر، فنحيي بعضنا ونقف في صمت أو نتحدث عن كليوباترا، وعن طفلتها، وكم من المحزن أن يعيش المرء في هذا العالم. ثم نخرج من المقابر ونسير في صمت، وتبطئ في سيرها عمدًا حتى تسير بمحاذاتي. كانت الطفلة الصغيرة تجذب يدها مبتهجة سعيدة وتضيق عينيها من ضوء الشمس المشرقة، وكنا نتوقف لنلاطف الطفلة العزيزة معًا.

عندما نبلغ البلدة، كانت أنيوتا بلاجوفو تضطرب ويحمر وجهها وتودعني، وتواصل طريقها بمفردها مقطبة الجبين. لم يكن بإمكان أحد من الذين يلتقونها أو يرونها أن يتخيل أنها كانت تسير منذ برهة قصيرة بجانبي، ولا أنها كانت تلاطف الطفلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

Notes

[←1]

(1) دارت رحاها بتاريخ 7 سبتمبر 1812 ما بين جيش نابليون بونابرت والجيش الإمبراطوري الروسي بقيادة الجنرال ميخائيل كوتوزوف، وهي إحدى أكبر معارك الغزو الفرنسي لروسيا التي نجم عنها خسارة 44.000 جندي روسي و 35.000 جندي فرنسي ما بين قتيل وجريح وأسير، وقد قيل إنها كانت أكثر معارك الحروب النابليونية دمويةً بل ومن أكثر الحروب دموية في التاريخ البشري حتى ذلك الحين. على الرغم من أن الفرنسيين انتصروا، إلا أن الروس تفاخروا بأنهم صمدوا في وجه نابليون ولم يعطوه الفرصة التي كان يحلم بها، بأن يقضي عليهم في معركة واحدة حاسمة.

(2) عربة روسية قديمة تجرها ثلاثة خيول.

[←2]

[←3]

(3) في الفكر الشعبي يعد الفعلان نذير شؤم.

[←4]

(4) بالفرنسية في الأصل.

[5→]

(5) مقياس طول روسي يبلغ حوالي 1.1 كيلو متر (0.66 ميل).

[6←]

(6) شوربة أوكرانية مكونة بالأساس من الشمندر الأحمر.

[7←]

(7) المنطقي هو عكس ذلك، فتناول اللحوم يكون في أيام الإفطار، والخضراوات في أيام الصوم لكني حافظت عليها كما جاءت في الأصل. (المترجم).

(8) طائر من رتبة العصفوريات. [8←]

[9←]

(9) تؤمن بعض الطوائف المسيحية بأن حقبة من الزمن تمتد إلى ألف عام سوف تحل على العالم حيث يحكم فيها المسيح الأرض كلها.

[←10]

(10) حفيد جانكيز خان.

[11←]

(11) الإشارة إلى مثل وكيل الظلم الذي قاله المسيح بحسب إنجيل لوقا 16: وقال أيضًا لتلاميذه: «كان إنسان غني له وكيل فوشى به إليه بأنه يبذر أمواله فدعاه وقال له: ما هذا الذي أسمع عنك؟ أعط حساب وكالتك لأنك لا تقدر أن تكون وكيلًا بعد. فقال الوكيل في نفسه: ماذا أفعل؟ لأن سيدي يأخذ مني الوكالة. لست أستطيع أن أنقب وأستحي أن أستعطي. قد علمت ماذا أفعل حتى إذا عزلت عن الوكالة يقبلوني في بيوتهم. فدعا كل واحد من مديوني سيده وقال للأول: كم عليك لسيدي؟ فقال: مائة بث زيت. فقال له: خذ صكك واجلس عاجلًا واكتب خمسين. ثم قال لآخر: وأنت كم عليك؟ فقال: مائة كر قمح. فقال له: خذ صكك واكتب ثمانين. فمدح السيد وكيل الظلم إذ بحكمة فعل لأن أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم.. وأنا أقول لكم: اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية. الأمين في القليل أمين أيضًا في الكثير والظالم في القليل ظالم أيضًا في الكثير. فإن لم تكونوا أمناء في مال الظلم فمن يأتمنكم على الحق؟ وإن لم تكونوا أمناء في ما هو للغير فمن يعطيكم ما هو لكم؟ لا يقدر خادم أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر لا تقدرون أن تخدموا اللّٰه والمال».

[←12]

(12) جعة روسية تصنع من حبوب الجاودار.

[←13]

(13) تدليل ماريا.

[←14]
(14) ذكر الاسم بالكامل دلالة على الاحترام والتكلف، وهو أمر غير معتاد بين الأزواج.

[←15]

(15) جمع مرعة، وهو نوع طائر طويل الساقين.

[16←]

(16) طائفة دينية في إيطاليا يجلد أفرادها أنفسهم بالسياط تكفيرًا عن خطاياهم.

[←17]

(17) المقصود: العذراء مريم.

[←18]

(18) الخبز والملح لهما دلالات شعبية كثيرة عند كثير من الشعوب، وهنا يقدم الفلاحون الخبز والملح امتنانًا وعرفانًا لماشا.

[←19]

(19) يستخدم كمادة معقمة.

[←20]

(20) إفراز عضوي يحوي المواد الهيدروكربونية من النبات، ولا سيما الأشجار الصنوبرية، التي تكون قيمتها كبيرة في السوق لمكوناتها الكيميائية واستخداماتها، مثل الورنيش والصمغ، وبوصفها مصدرًا هامًّا للمواد الخام وللتركيب العضوي، والبخور والعطور.